

الكتاب : التعازي والمراثي

المؤلف : المبرد

ابسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

الحمد لله الذي يرث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، الذي كتب على عباده الفناء، واستأثر بالبقاء، وصلى الله على محمد عبده ورسوله، وعلى آله الطيبين الأخيار وسلم كثيراً.
قال أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي النحوي، المعروف بالمبرد رحمه الله تعالى: دعانا إلى تأليف هذا الكتاب واجتلاب محاسن من تكلم في أسباب الموت من المواعظ والتعازي والمراثي على قدر ما يحضر فإننا ابتدأناه عن غير خلوةٍ بفكرٍ ولا تمييزٍ لكتب، وإنما اقتضيناها ثقةً بالله وتوكلاً عليه مصابنا برجل استخفنا لذلك وبعثنا عليه، وهو أبو إسحاق القاضي إسماعيل بن إسحاق ابن إسماعيل بن حماد بن زيد بن درهم. وإنما نسبناه التماساً للتبويه باسم سلفه الصالحين.

ولقد كان رحمه الله عليه في أكثر الأمور أنجع وأنفع. ولو عد كاملٌ لا سقطه فيه لكان إياه، لكن الله جل ثناؤه جعل في المخلوقين النقص، وجعلهم ضعفاء، وحكم بأنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً. ولقد كانت أنصباؤه في ذلك القليل كاختوبة على أكثره رحمة الله عليه مع ما جمع الله جل وعز فيه من حكم عادل، ورأي فاضل، وأدب بارع، ولب ناصع، وتصرف في العلوم، وحلم يربي على الحلوم، وفي الله تعالى ذكره خلفٌ من كل هالك، وعزاء من كل مصيبة. وبرسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة والقُدوة، وكل خطب، إذا ذكرت وفاته، صغير، وكل رزء حقيق؛ عليه رحمة الله وبركاته.

ويروى عن علي بن أبي طالب رحمة الله عليه من وجوهٍ سمعنا ذلك وبعضها يزيد على بعض، أنه قال: لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم تولى غسله العباس، وعلي، والفضل، فقال علي: لم أره يعتاد فاه في الموت ما كنت أراه في أفواه الموتى. ثم لما فرغ علي من غسله وأدرجه في أكفانه، كشف الإزار عن وجهه، ثم قال: بأبي أنت وأمي، طبت حياً، وطبت ميتاً، انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت أحد ممن سواك من النبوة والإنباء، خصصت حتى صرت مسلماً عمن سواك، وعممت حتى صارت المصيبة فيك سواء. ولولا أنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لأنفدنا عليك الشؤون، ولكن ما لا يدفع كمدً وإدباراً محالفان وهما داء الأجل، وقلا لك. بأبي أنت وأمي. أذكرنا عند ربك، واجعلنا من همك. قال: ثم نظر إلى قذاق في عينه فلقطها بلسانه ثم رد الإزار على وجهه.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تعزوا عن موتاكم بي.

وهذا كلام تلقاه عنه المؤمنون ثم أدوه إلى من بعدهم من إخوانهم المؤمنين، فاحتذى هذا المثال يقيناً وإيماناً جماعة كلهم سلكه فاهتدى، ووصفه فأحسن، فمنهم عبد الله بن أراكة الثقفي، فإنه أصيب بابن له فأسرف أخوه عبد الله ابن عبد الله في البكاء فوعظه وعزاه فقال: الطويل

وقلت لعبد الله إذ جدّ باكياً: ... تعرّ وماء العين منهملٌ يجري
لعمرى لمن أتبع عينيك ما مضى ... به الدهر أو ساق الحمام إلى القبر
لتستفدن ماء الشؤون بأسره ... ولو كنت تمرهين من ثيج البحر
تأمل ! فإن كان البكا ردّ هالكاً ... على أحدٍ فاجهد بكاك على عمرو
ولا تبك ميتاً بعد ميتٍ أجنّه ... عليّ وعبّاسٌ وآل أبي بكر

باب من التعازي

وهو أكثر ما تكلم فيه الناس، لأنه لم يعر أحد من مصيبة بحميم، ذلك قضاء الله على خلقه. فكل تكلم إما
متعزياً وإما معزياً، وإما منصبراً محتسباً.
قال أبو الحسن المدائني: كانت العرب في الجاهلية وهم لا يرجون ثواباً ولا يخشون عقاباً يتحاضون على
الصبر، ويعرفون فضله، ويعيرون بالجزع أهله، إيثاراً للحزم وتزيناً بالحلم، وطلباً للمروءة، وفراراً من
الاستكانة إلى حسن العزاء، حتى إن كان الرجل منهم ليفقد حميمه فلا يعرف ذلك فيه. يصدق ذلك ما جاء
في أشعارهم، ونثي من أخبارهم. قال دريد بن الصمة في مرثيته أخاه عبد الله: الطويل
قليل التشكي للمصيبات حافظٌ ... مع اليوم أدبار الأحاديث في غد
صبا ما صبا حتى إذا شاب رأسه ... وأحدث حلماً قال للباطل ابعده
قال أبو عبيدة: كان يونس بن حبيب يقول: هذا أشعر ما قيل في هذا الباب.
وقال أبو خراش الهذلي: الطويل

تقول أراه بعد عروة لاهياً ... وذلك رزءٌ لو علمت جليل
فلا تحسبي أنّي تناسيت عهده ... ولكن صبري يا أميم جميل
وقال أبو ذؤيب: الطويل
وإني صبرت النفس بعد ابن عنيس ... وقد لجّ من ماء الشؤون لجوج
لأحسب جلدأً أو ليناً شامتٌ ... وللشّر بعد القارعات فروج
وقال أوس بن حجر: المنسرح
أيتها النفس أجملِي جزعا ... إنّ الذي تحذرين قد وقعا
وقال أبو ذؤيب: الكامل
وتجلدي للشامتين أريهم ... أنّي لريب الدهر لا أتضعضع
والشيء يذكر بالشيء: يروى أن الحسين بن علي بن أبي طالب رحهما الله دخل على معاوية وهو في علة له
غليظة، فقال معاوية: ساندوني ثم تمثل بهذا البيت:
وتجلدي للشامتين أريهم ... أنّي لريب الدهر لا أتضعضع
فسلم الحسين رحمه الله ثم تمثل:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفت كل تميمة لا تنفع

فاستظرف الجواب كون البيت من قصيدة واحدة.

وقال عمرو بن معدي كرب: مجزوء الكامل

كم من أخ لي صالح ... بوأته بيدي لحدا

ما إن هلكت لفقده ... ليس البكاء يردّ زندا

ألبسته أثوابه ... وخلقت يوم خلقت جلدا

وقال حارثة بن بدر الغداني: البسيط

الصبر أجمل والدنيا مفعجة ... من ذا الذي يجرع مرة حزنا ؟

وما جاء في هذا أكثر من أن يؤتى على غابره.

وتعزيك الرجل تسليتك إياه. والعزاء هو السلو وحسن الصبر على المصائب وخير من المصيبة العوض منها

والرضى بقضاء الله والتسليم لأمره تنجزاً لما وعد من حسن الثواب، وجعل للصابرين من الصلاة عليهم

والرحمة. فإنه يقول تبارك وتعالى: وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون.

أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون. وقال وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت

قلوبهم والصابرين على ما أصابهم. وقال تبارك اسمه: ما أصاب من مصيبة إلا ياذن الله ومن يؤمن بالله يهد

قلبه يقول الاسترجاع. خبرني بذلك غير واحد من الفقهاء.

وروى أبو الحسن عن الفضل بن تميم قال: قيل للضحك بن قيس: من قال عند المصيبة: إنا لله وإنا إليه

راجعون، كان ممن أخذ بالتقوى وأدى الفرائض؟ فقال: نعم، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة.

قال الأصمعي عن بعض العلماء: لو وكل الناس بالجرع للجؤوا إلى الصبر.

وروي عن الحسن أنه كان يقول: الحمد لله الذي أجرنا على ما لا بد لنا منه، وأثابنا على ما لو كلفنا غيره

لصرنا فيه إلى معصيته.

قال الأصمعي وأبو الحسن: جزع سليمان بن عبد الملك على ابنه أيوب فقال له رجل من القراء: يا أمير

المؤمنين إن امرأ حدث نفسه بالبقاء في الدنيا وظن أنه يعرى من المصائب فيها لغير جيد الرأي. فكان ذلك

أول ما تسلى به.

وكان علي بن أبي طالب رضوان الله عليه يقول: عليكم بالصبر، فإن به يأخذ الحازم وإليه يعود الجازع.

وروي عن أبي الحسن، عن أبي عمرو بن المبارك قال: دخل زياد بن عثمان بن زياد على سليمان بن عبد

الملك، وقد توفي ابنه أيوب، فقال: يا أمير المؤمنين، إن عبد الرحمن بن أبي بكر كان يقول: من أحب البقاء

فليوطن نفسه على المصائب.

قال أبو الحسن عن علي بن سليمان عن الحسن: الخير الذي لا شر فيه الشكر مع العافية، والصبر عند

المصيبة. فكم من منعم عليه غير شاكر، ومن مبتلى غير صابر.

قال: ومن أحسن التعزية إبلاغ في إيجاز. قال أبو الحسن: ومن أحسن ما سمعنا في ذلك عن أبي الحكم الليثي عن شيبه بن نصح قال: لما قبض النبي صلى الله عليه وسلم صرخت أسماء بنت عميس، فنادى مناد من ناحية البيت، يسمعون حسه ولا يرون شخصه: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، أعلى رسول الله تكون، أم على رسول الله تصرخون؟ فقالت أسماء: ما على رسول الله صلى الله عليه وسلم نبكي ولا على رسول الله نصرخ، ولكن على انقطاع الوحي عنا. قال: ثم نادى الثانية: كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. إن في الله عزاءً من كل مصيبة، وعوضاً من كل مرزئة، ودركاً من كل فائت، وخلفاً من كل هالك. فبإلله فتقوا، وإياه فارجوا. المحبور من حبه الثواب، والخائب من أمن العقاب.

قال أبو الحسن عن الحسن بن دينار عن علي بن زيد عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع إبراهيم في حجره وهو يجود بنفسه فقال: لو لا أن الماضي فرط الباقي وأن الآخر لاحق بالأول لخرنا عليك يا إبراهيم. ثم دمعت عينه فقال: تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي الرب. وإنا بك يا إبراهيم نخزونون.

قال أبو الحسن: أخبرنا عن مسلمة عن أبان عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لأن أقدم فرطاً أحب إلي من أن أدع مئة مستلتم. وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: من عزى مصاباً فله مثل أجره قال أبو الحسن عن بعض أصحابه قال: عزى أبو بكر عمر على طفل له، فقال: عوضك الله منه ما عوضه منك.

تفسير هذا أنه يقال: إن الطفل يعوض من أبويه الجنة.

قال أبو الحسن عن أبي بكر عن أبي المليح قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله جل ذكره: إذا أخذت صفي عبيد فصبر لم أرض له ثواباً دون الجنة.

باب من الشعر

مراثي الجاهلية المشهورة المستحسنة المستجادة المقدمة معلومة موسومة منها قصيدة متمم بن نويرة في أخيه مالك، على أن سائر أشعاره غير مذموم، وان تقدمتهن العينية التي أولها الطويل
لعمرى وما دهري بتأين هالكٍ ... ولا جزعٍ مما أصاب فأوجعا
ومنها قصيدة دريد في أخيه عبد الله التي أولها الطويل
أرثّ جديد الحبل من أمّ معبد ... بعاقبةٍ وأخلفت كلّ موعد
ومنها قصيدة كعب بن سعد الغنوي يرثي فيها أخاه، وهي التي أولها: الطويل
تقول سليمي ما لجسمك شاحباً ... كأنك يحميك الشراب طيب ؟
ومنها قصيدة أعشى باهلة، أبي قحافة وهي التي أولها: البسيط
إني أتني لساناً لا أسرّ بما ... من علو لا عجبٌ منها ولا سحر
ومراثي الخنساء ومراثي ليلي الأخيلية، وسنذكر من ذلك طرفاً، ومن مراثي أوس بن حجر في فضالة بن

كللة الأسدي، ومراثي لبيد في أخيه أربد، وعدي المهلهل فيمن بكاه من قومه اختيارات بارعة ونبه على ما فيها ولن اخيرت ثم ننحط إلى شعر الإسلام من قديم ومحدث وما بينهما إن شاء الله. ونفصل ذلك بالمواعظ كلاماً وشعراً والتعازي على ما يحضر ونوفق له إن شاء الله.

فمما اخترنا من قصيدة متمم وكان الذي تولى قتل أخيه بأمر خالد بن الوليد بن المغيرة ضرار بن الأزور الأسدي وحدثنا التوزي في إسناد أن ضراراً هذا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسلم ففعل وقال: المتقارب

تركت الخمر وضرب القدا ... ح واللّهو تصليّةً وابتهالاً
وكريّ الخبر في غمرة ... وشديّ على المشركين القتلاً
فيا ربّ لا أغبن صفقتي ... فقد بعث أهلي ومالي بدالا
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما غنيت صفقتك يا ضرار.
ثم نرجع إلى اختيارنا من العينية، ففيها من حر الكلام وصادق المدح قوله: الطويل
إذا ابتدر القوم القداح وأوقدت ... لهم نار أيسارٍ كفى من تصجّعا
بمخني الأيادي ثم لم تلف مالكا ... على الفرث يجمي اللحم أن يتمزّعا
وقوله:

وكنا كندما بني جذيمة حقة ... من الدهر حتى قيل لن نتصدّعا
وعشنا بخير في الحياة وقبلنا ... أصاب المنايا رهط كرى وتبعا
فلما تفرّقنا كأني ومالكا ... لطول أجتما ع لم نبت ليلةً معا
وفيها مما يختار:

أقول وقد طار السنّا في ربابه ... وغيث يسحّ الماء حتى تريعا
سقى الله أرضاً حلّها قبر مالك ... ذهاب الغواذي المدجنات فأمرعا
وآثر بطن الواديين بديمة ... ترشّح وسمياً من التبت خروعا
تحبّته مني وإن كان نائياً ... وأضحى تراباً فوقه الأرض بلقعا
فما وجد أطار ثلاثٍ روائم ... رأين مجراً من فصيلٍ ومصرعا
يذكرن ذا الوجد القديم بوجده ... إذا حتّت الأولى سجعن لها معا
بأوجد مني يوم فارقت مالكا ... ونادى به التاعي السميع فأسمعا
يريد بالسميع: المسمع.

ومما يستحسن من شعره فيه: الطويل
كهولٌ ومردٌ من بني عمّ مالكٍ ... وأيفاع صدقٍ لو تمليتهم رضى
سقوا بالعقار الصّرف حتى تناهوا ... كدأب ثودٍ إذ رغا سقبهم ضحى
إذا القوم قالوا: من فنيّ لعظيمة؟ ... فما كلّهم يعني ولكنّه الفتى

وهذا يشبه قول طرفة: الطويل
إذا القوم قالوا: من فتى؟ خلت أنني... عنيت فلم أكسل ولم أتبدل
ومن ذلك قوله في أخرى: الطويل
وكل فتى في الناس بعد ابن أمه... كساقطة إحدى يديه من الخبل
وبعض الرجال نخلة لا جنى لها... ولا ظل إلا أن تعد من النخل
وهذا من جيد الكلام لصحة معناه، ولأنه وافق حقاً. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الناس كإبل مئة،
لا تكاد ترى فيها راحلة وقد قال الآخر لشجرات ضرب بمن مثلاً: الطويل
إذا لم يكن فيكن ظل ولا جنى... فأبعدكن الله من شجرات
والرجل رحمه الله الذي أنشأنا هذا الكتاب بسببه، ومن أجل وفاته، نأمن أن يلحق وصفنا إياه تزيد أو
تكلف لإجماع العامة فيه على قول الخاصة. فكأنه شيء وقع إلهاماً، وكان مادحه يستملي مدحه من قول
القائل: الكامل

جلت مصيبتة فعم مصابه... فالتس فيه كلهم مأجور
والتس ماتهم عليه واحد... في كل دار رثة وزفير
تجري عليك دموع من لم توله... خيراً لأنك بالثناء جدير
ويشاكل هذا المعنى قول عمار بن عقيل لخالد بن يزيد بن يزيد: الطويل
أرى التس طراً حامدين لخالد... وما كلهم أفضت إليه صنائعه
قال: النصب في كلهم أحب إلي، والرفع جيد
ولن يترك الأقوم أن يحمداوا القتي... إذا كرمت أعراقه وطبائعه
فتى أمعن ضراؤه في عدوه... وخصت وعمت في الصديق منافعه
وإن سلم أحد من أن يكون له عدو فإسماعيل بن إسحاق القاضي رحمه الله عليه، ذلك الرجل. ولكن من
سلم من أن يعادى لجناية فغير سالم من حاسد باغ.
وحدثني الرياشي قال: حدثني محمد بن عبد الله الأنصاري في إسناد قال: صلى أبو بكر رحمه الله عليه صلاة
الصبح يوماً، فلما انفتل قام متمم بن نويرة في آخر الناس، وكان رجلاً أعور دميماً، فاتكأ على قوسه ثم
قال: الكامل

نعم القتي، إذا الرياح تناوحت... خلف البيوت، قتلت يا بن الأزور
أدعوته بالله ثم غدرته... لو هو دعاك بدمية لم يغدر
وأوماً إلى أبي بكر، فقال أبو بكر رضي الله عنه: والله ما دعوته ولا غدرت به، ثم اتكأ متمم على سية قوسه
حتى دمعت عينه العوراء، ثم أتم شعره فقال:
لا يمك العوراء تحت ثيابه... حلوا شمائله عفيف المتر
ولنعم حشو الدرع كنت وحاسراً... ولنعم مأوى الطارق المتور

فقام إليه عمر فقال: لوددت أنك رثيت أخي بما رثيت به أخاك. فقال له: يا أبا حفص، لو أعلم أن أخي صار حيث صار أخوك ما رثيته يقول: إن أخاك قتل شهيداً. فقال عمر: ما عزاني أحد بمثل تعزيتك

وفي حديث آخر أنه رثي زيد بن الخطاب فلم يجد، فقال له عمر: لم أرك رثيت زيدا كما رثيت أخاك مالكا، فقال: إنه والله يجرني لمالك ما لا يجرني لزيد. وقال له عمر يوماً: إنك لجزل فأين كان أخوك منك؟ فقال: كان، والله، أخي في الليلة ذات الأزيز والأصوات والصراد، يركب الجمل النفال بين المرادتين المتلوتين، ويجيب الفرس الجرور، وعليه الثملة الفلوت، وفي يده الرمح الثقيل حتى يصبح متهللاً، ولقد أسرت مرة في بعض أحياء العرب فمكثت فيهم سنة أحدثهم وأغنيهم، فما أطلقوني. فلما كان بعد، وقف عليهم مالك في شهر من الأشهر الحرم، فحدثهم ساعة ثم استوهبي منهم وهم لا يعرفونه فوهبوني له، فعلمت أن ساعة من مالك أكثر من حول مني.

قال: وأما مرثية دريد بن الصمة فكان الأصمعي يقدمها جداً، وهي أهل ذاك. وكان سبب هذه المرثية أن أخاه عبد الله بن الصمة أحد بني جشم بن بكر بن هوزان، غزا قبائل غطفان بن سعد بن قيس بن مرة، وفرازة وأشجع بن بغيض. فاكسح أموالهم وانصرف، فلم يجاوز بعيداً حتى أناخ وأمر بالإبل تنحر، فقال له أخوه دريد: يا أبا فرعان، إن غطفان غير نائمة عن أموالها فتقدم شيئاً ثم أنخ. فقال: لا والله لا أرى حتى آخذ مرباعي وأنتقع نقيعي، فأمر الإبل فنحرت، وأجلسوا ربيبتهم فلما سطعت الدواخن قال له الربيبة: إني أرى غبرة قد ارتفعت أكثر من هذه الدواخن. قالوا: فتأمل ماذا ترى. قال: أرى قوماً على خيلهم كأنهم الصبيان. قالوا: هذه فرازة، لا بأس، فتأمل. قال: أرى قوماً كأنهم غمسوا في الجأب فقالوا: تلك أشجع ولا بأس، تأمل. قال: أرى قوماً كأنما يتقلعون من صخر، يقلعون دوابهم بيوادهم. قالوا: تلك عيس والموت. فلم ينشوا أن التقى القوم فاقتلوا شيئاً، ثم نادوا: أردي، والله، فارس هو أبو فرعان، فأقبل دريد فإذا به صريعاً، وأصاب دريداً جراحات. وله خبر في ذلك اليوم ليس من هذا. ففي ذلك يقول في كلمته هذه:

الطويل

وقلت لعارضٍ وأصحابٍ عارضٍ ... ورهط أبي السّوداء والقوم شهدي
أمرتهم أمري بمنعرج اللّوى ... فلم يستبينوا التّصح إلاّ ضحي الغد
فلما عصوني كت منهم وقد أرى ... غوايتهم وأتني غير مهتد
فما أنا إلاّ من غزيرة إن غوت ... غويت وإن ترشد غزيرة أرشد
فقلت لهم: ظنّوا بألفي مقاتلٍ ... سراهم في الفارسي المسرد
فنادوا وقالوا: أردت الخيل فارساً ... فقلت: أعبد الله ذلكم الردي؟
فجئت كأمّ الوّ ريعت فأقبلت ... إلى جذم من جلد سقبٍ مقدّد
فما راعني إلاّ الرّماح تنوشه ... كوقع الصّياصي في التّسيح المملد
فإن يك عبد الله خلّى مكانه ... فما كان وقافاً ولا طاتش اليد
كميش الإزار خارج نصف ساقه ... بعيداً من السّوءات طلاع أنجد

قليل التشكي للمصيبات حافظاً ... مع اليوم أدبار الأحاديث في غد
وهونٌ وجدي أنني لم أقل له: ... كذبت، ولم أبخل بما ملكت يدي
وأشعار الجاهلية مشهورة معروفة، وإنما غلي منها العيون. ألا ترى إلى قوله قليل التشكي للمصيبات ثم
وصله بقوله حافظ مع اليوم أدبار الأحاديث في غد كيف قرن فيه معنى ظريفاً بآخر مثله في الظرافة التي لا
يمنتع اللبيب من قبولها واستحسانها والمعرفة بحقيقة ما فيها كما قلنا في الذي قبله.
وكذلك قول كعب بن سعد الغنوي: الطويل

وداعٍ دعا: يا من يجيب إلى التدى؟ ... فلم يستجبه عند ذاك مجيباً
فقلت: أدع أخرى وأرفع الصوت رفعةً ... لعل أبا المغوار منك قريب
ألا ترى ما وصفه به من الجود الذي هو عادة يجتمع عليها ثم لم يعدل به أحداً؟
وكذلك قول أعشى باهلة في مرثيته المنتشر بن وهب حيث يقول في جلده، إذ كان جل ما فيه مما يمدح به
فيما كان به موصوفاً: البسيط

ما يغمز الساق من اين ومن وصب ... ولا يعضّ على شر سوفه الصقر
ماضي العزيم على العزّاء منصلتٌ ... بالقوم ليلة لا ماءً ولا شجر

كأنه عند صدق القوم أنفسهم ... باليأس تلمع من قدّامه البشر
ولا تعلم بيتاً في هذا المعنى من يمن النقيبة وبركة الطلعة أبرع من هذا، وإنما غلي هذا الضرب من العيون.
ومثل ذلك قوله:

لا يتأرى لما في القدر يرقبه ... ولا تراه أمام القوم يقنفر
قال أبو العباس: وحدّثنا الرياشي في إسناد ذكره قال: أنشد منشد أبا بكر الصديق رضي الله عنه قول زهير
في هرم بن سنان: الكامل

أن نعم معترك الجياح إذا ... خبّ السّفير وسايء الخمر
ولنعم حشو الدرع أنت إذا ... دعيت: نزال وجّ في الدّعر
وترهق التيران يحمّد في ال ... لأواء غير ملعّن القدر
فجعل أبو بكر يقول عند كل بيت: هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنشده:
والسّتر دون الفاحشات وما ... يلقاك دون الخير من ستر

فقال: هكذا، والله، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم قال: أشعر شعرائكم زهير.
ويروى من غير وجه حدّثناه مسعود بن بشر وغيره أنه لما مات مخلد بن يزيد بن المهلب، حضره عمر بن
عبد العزيز وصلى عليه ثم قال: الكامل

بكوا حذيفة لا تبكّوا مثله ... حتّى تبيد قبائلٌ لم تخلق
ثم قال: لو أراد الله بيزيد خيراً لأبقى له هذا الفتى. فهذا من الأبيات الجامعة كنعو ما ذكرنا.
ولقد أحسنت الكندية في قولها في إخوتها: الطويل

أبوا أن يغفروا والقنا في نحورهم ... فماتوا وأطراف القنا تقطر الدّما
ولو أنّهم فرّوا لكانوا أعزّة ... ولكن رأوا صبراً على الموت أكرما
هوت أمّهم ماذا بهم يوم صرّعوا ... بجيشان من أسباب مجدٍ تصرّما
والقائل: الوافر

ألا لهف الأرامل واليتامى ... ولهف الباقيات على قصيّ
لعمرك ما خشيت على قصيّ ... منية بين سلعٍ والسليّ
ولكّني خشيت على قصيّ ... جريرة رحمة في كلّ حيّ
فأحسن الشعر ما خلط مدحاً بتفجع، واشتكاءً بفضيلة، لأنه يجمع التوجع الموجه تفرجاً، والمدح البارع
اعتذاراً من إفراط التفجع باستحقاق المراثي وإذا وقع نظم ذلك بكلامٍ صحيح ولهجة معربة ونظم غير
متفاوت فهو الغاية من كلام المخلوقين.

واعلم أن قول الخنساء من أجل الكلام حيث تقول: البسيط
وإنّ صخرًا لوالينا وسيّدنا ... وإنّ صخرًا إذا نشئو لنحار
وإنّ صخرًا لتأتّم الهداة به ... كأنه علمٌ في رأسه نار
فجعلته موضعاً للسؤدد ومعنيًا بأمر العشيرة لقولها: لوالينا وسيّدنا، وجواداً مفضلاً نحاراً في وقت الأقتار
والشتوة، ثمّ قالت: وإن صخرًا لتأتّم الهداة به فجعلته إمام الأئمة، ثمّ جعلته علماً والعلم: الجبل ، فلم تقتصر
على ذلك حتى جعلت في رأسه ناراً، شهرةً في الكرم، وناراً على علم في الهداية.
وقول الله عز وجل: وله الجوّاري المنشآت في البحر كالأعلام إنما هي الجبال. وقال جرير: الرجز
إذا قطعن علماً بدا علم

ومن عجيب ما قيل قول النابغة في حصن بن حذيفة إكباراً لشأنه، واستعظاماً لموته، وتعجباً من ذهاب مثله:
الطويل

يقولون حصنٌ ثمّ تأبى نفوسهم ... وكيف بمحصنٍ والجبال جنوح؟
ولم تلفظ الموتى القبور ولم تزل ... نجوم السّماء والأديم صحيح
فعمّا قليلٍ ثمّ جاء نعيّه ... فظلّ نديّ الحميّ وهو يروح
وذكرنا أوساً ومراثيه في فضالة بن كلدة الأسدي. وكان من خبره معه أنه قصده من أرض بني تميم، فلما
قارب منزله، جالت به ناقته فرمت به فكسرت فخذه. فأقام ليلته مكانه لا يريم حتى إذا أصبح نظر وهو في
عام خصيب إلى جوار من صبيات بني أسد، قد خرجن يجتنبن الكمأة، فجعل ينسبهن حتى وقف على ابنة
فضالة، فقال لها: خذي هذا الحجر فأتي به أبك، فقولي له: قد زارك ابن هذا، وخبريه بحالي، فلما أتته قال:
أتانا، والله، بمدح كثير أو بدم كثير. فأتاه، فضرب قبّة، ولم يزل يعالجه حتى برأ.
قال الأصمعي: وفي بني أسد حذافة بالجبر. قال: وسمعت أعرابياً من بني أسد يقول: أنا أجبر الناس لفقك أو
ترقوة. قال الأصمعي: وهما أشد ما يجبر. ففي ليلته تلك يقول: المتقارب

خذلت على ليلةٍ ساهره ... بصحراءٍ شرحٍ إلى ناظره
تزداد ليالي في طولها ... فليست بطلقٍ ولا ساكره
كأنّ أطاول شوك السّيال ... تشكّ به مضجعي شاجره
وفي حلّيمة بنت فضالة بن كلدة التي ذهبت إلى أبيها برسالته يقول: الطويل
لعمرك ما ذمّت ثواء ثويّها ... حلّيمة إذ ألقّت مراسي مقعد
ولكن تلقّت باليدين ضماني ... وحلّ بفلجٍ فالذّئبة عودّي
ولم تلهها تلك التكاليف إنّها ... كما شئت من أكرومةٍ وتخرد
سأجزيك أو يجزيك عني مَثوبٌ ... وقصرك أن يثنى عليك وتحمدي
فأقام عند فضالة مدة يسيرة ثم مات فضالة ففيه يقول قصائد نذكر بعضها والمختار منها: قال أبو عبيدة:
كان أوس بن حجر شاعر مضر في الجاهلية حتى نشأ زهير والنابعة فوضعا منه، ولكنه شاعر تميم غير مدافع.
فمما قال فيه: المنسرح

أيتها النفس أجملّي جزعا ... إنّ الذي تحذرين قد وقعا
إنّ الذي جمّع السّماحة والنّ ... جده والبأس والقوى جمعا
الألمعيّ الذي يظنّ لك ... الظنّ كأنّ قد رأى وقد سمعا
والمتلف المخلف المرزأ لم ... يمتنع بضعفٍ ولم يمت طبعاً
والحافظ التّاس في تحوط إذا ... لم يرسلوا خلف عائدٍ ربعا
وعزّت الشّمأل الرّياح وقد ... أمسى كميع الفتاة ملتفعا
وشبه الهيدب العمام من ال ... أقوام سقباً ملبساً فرعا
وكانت الكاعب الممتعة الخ ... سناء في زاد أهلها سبعا
ليبكك الشّرب والمدامة وال ... فتيان طراً وطامع طمعا
وذات هدمٍ عارٍ نواشرها ... تصمت بالماء تولباً جدعا
تأويل ما في هذه القصيدة مما ليس بواضح إلا بعد نظر: قوله: أيتها النفس اجملّي جزعا إنّ الذي تحذرين قد
وقعا. تقول العرب: الحذر أشد من الوقية. وإنما حق الشيء المتخوف أن يكون صاحبه مرتاعاً حذر
وقوعه، فإذا وقع البأس ارتفع ذلك الحذر.

ومن ذلك ما يتدارسه الصالحون: إذا استأثر الله عز وجل بشيء فإله عنه.
ويحكى عن بعض الأعاجم من ملوكهم أنه مات له ابن فلم يجزع عليه، وأقبل على شأنه، فسئل عن ذلك
فقال: إنما الروعة قبل وقوع المخوف، فإذا وقع فعلى اللبيب ألا ينسب إلى الوقوف متفكراً في إثر ما لا
يدرك، ولكن ليزجر النفس عن خطائها، ويعمل الشغل فيما يجدي عليه.
وقوله: الألمعي الذي يظن لك الظن كأنه قد رأى وقد سمعا الألمعي: الحديد القلب الذي يوقع الشيء موقعه.
وهذا مثل لا نعلمه لأحد قبله. وكان مولانا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول بأوضح من
هذا. كان يقول: لا يعيش بعلم أحد حتى يعيش بظنه، وقال الزبير بن العوام: لا عاش بخير من لم يره ظنه ما

لم تره عينه. وقال عمرو بن العاص: ظن الرجل قطعة من علمه، ولسانه قطعة من عقله.
وقوله: المخلف المتلف قد جمع فيه ما يعني عن التفسير والتزويد إذ يقول: يتلف جوداً وكرماً، ويخلف نجدةً
واكتساباً.

وقوله: لم يمتع بضعف أي لم يقرون به. تقول: أمتع الله بفلان أي أبقيه الله حتى يتمتع به أحباؤه. وكما قال
جرير لعبد العزيز بن الوليد: الوافر
إذا جدّ الرّحيل بنا فرحنا ... فأحسن ذو الجلال بك المتاعا

وقوله ولم يمت طبعاً يقال: طبع يطبع طبعاً إذا غلب عليه الحرص حتى يغطي على قلبه. ويقال: طبع السيف
إذا ركبته الصدأ حتى يغطي على صميم الحديد. وقوله: والحافظ الناس في تحوط يقال للسنة الجديدة: تحوط
وقحوط بالناء والقاف جميعاً. وقوله: إذا لم يرسلوا خلف عائد ربحا العائد: التي معها ولدها، فإذا كانت
السنة الجديدة نحروا الفصال لثلاثاً تضرر بالأمهات. وقوله: وعزت الشمال الرياح يقول: غلبت الرياح وتلك
علامة الجذب والقحط، لأن الجنوب هي التي تأتي بالندى والمطر. ويقال عز فلان فلاناً إذا قهره. وقول الله
جل ثناؤه: وعزني في الخطاب أي كان أعز مني في المخاطبة. وقولهم في المثل: من عز بز أي من غلب
استلب. والكميع: الضجيع. يقال: كامعها. يقال أضحي كميعة ملتفعاً. والملتفع: الملتحف. فهو منقبض
عنها مشغول بما يلاقي من القر. وقوله: وكانت الكاعب الممنعة الحسناء الكاعب: التي كعب ثديها. قال
الله جل وعز: وكواعب أترابا والممنعة: الخفوظة المخبأة، كانت كالسبع في زاد أهلها، وإنما من شأنها أن
تترف وتنعم إذا كانت في هذه الصفة.

وقوله: وشبه الهيدب العيام فالهيدب: المسترخي، والعيام: الثقل الذي لا يكاد يبعث، فشبه في انقباضه
بالسقب، وهو ولد الناقة إذا كان ذكراً، وإن كان أنثى فحائل. ملبساً فرعاً أي قد جعل عليه جلد الفرع،
وهو فصيل كانوا يتقربون به في الجاهلية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا فرع فأبطله الإسلام.
وقوله: وذات هدم فالأهدام خلقان الثياب، فيصف الفقيرة وأنه كان لها ملجأ. وقوله: عار نواشرها: من
الضر والجوع والبؤس. والنواشر: عروق الذراع، كما قال زهير: الطويل

وداراً لها بالرقمتين كأنها ... رواجع وشم في نواشر معصم
وقوله تصمت بالماء أي تسكن طفلها بالماء، وتسكنه إذ لم يكن له ثقل. والجدع: السوء الغداء، وكذلك
البحن والقطين.

ومما قال فيه مما اخترناه: المتقارب

ألم تكسف الشمس والبلر وال ... كواكب للجبل الواجب
لفقد فضالة لا تستوي ال ... قنود ولا خلة الذهب
ألفها على حسن أخلاقه ... على الجابر العظم والحارب
على الأروع السقب لو أنه ... يقوم على ذروة الصّاقب
لأصبح رثماً دفاق الحصى ... كمتن التبي من الكائب

ورقبته حتمات الملو ... ك بين السّرادق والحاجب
ويكفي المقالة أهل الرّحا ... ل غير معيب ولا عائب
ويجو الخليل بخير الحبا ... ء غير مكبّ ولا قاطب
برأس النّجبية والعبد وال ... وليدة كالجوّذر الكعاب
وبالأدم تحدى عليها الرّجا ... ل وبالشّول في القلق العاشب
فمن يك ذا نائل يسع من ... فضالة في أثر لا حب
هو الواهب العلق عين التّقي ... س والمتعلّي على الواهب
نجيحّ مليحّ أخو ماقطٍ ... نقابٌ يخبّر بالغائب
فأبرحت في كلّ خيرٍ فما ... يعاشر سعيك من طالب

وهذه القصيدة أمليناها بأسرها لأنّها جمعت تقدم كل بيت منها وكثرة المعاني والاختصار.

قوله: للجبل الواجب فالواجب: الساقط، يقال للبعير إذا برك فسمع صوت كركرته: وجب، وكذلك كل ساقط. قال أبو عبيدة: وأظن قولهم في الشيء: وجب أي وقع. وقوله: لفقد فضالة ثم قال: الأروع السقب، يعني فضالة. وهذا كهولك: إني لأثني على زيد، ثم تقول: على الشريف الكريم، وأنت تعنيه. والسقب: الطويل. وله مواضع هذا أحدها. والخلة: الخلل الذي قد تركه، وكان مسدوداً به. وأصل الخلة: الثلثة. يقال: فلان به خلة أي ليس أمره مستويّاً، وفلان مختل الجسم كذلك. وقوله لا تستوى الفقود، أي المصائب لاختلاف أوزان أهلها. فمن ذلك من يوجد منه العوض، ومنهم من يعسر وجود مثله. وأقول أنا: كمن أنشأنا هذا الكتاب من أجله، يبعد في الوهم إدراك نظيره ومدانيه، فضلاً عن مساويه.

والصاقب الذي ذكر: جبل معروف بعينه. يقول: فلو تحامل عليه. وليس يقوم من القيام على القدم، ولكن من قولك: فلان يقوم بأمر أهله، ويقوم بهذا الأمر أي يدافع عنه. فيقول: لو دافع الجبل العظيم متحاملاً عليه لأصبح الجبل رثماً كظهر النبي وهو رمل بعينه من الكائب، أي كمكان هذا من هذا. ومثله أبو عبيدة فقال: كهولك كظهر المربد من البصرة، والمرتوم الخطوم المدقوق. يقال: رتم أثفه أي دقه. وقوله دقاق الحصى أي دقيق، مثل قولك: رجل طوال وطويل، وجسام وجسيم، وخفاف وخفيف. وقوله ورقبته حتمات الملوك يقول: إذا أحتم على الملوك أمراً أو في أمر يخافه، أطاعه الملك وأجابه. ويقول بعضهم: هي الختمة، وينشده حتمات مثل ظلمة وظلمات. وذكر قرب مكانه من الملوك فقال: بين السرادق والحاجب. وقوله ويكفي المقالة أهل الرّحال يقول: إذا حضر استغني به عن غيره لبيانه وصوابه، فقد كفى من وراءه غير معيب عندهم ولا عائب لهم.

وهذه الأبيات إذا اعتبرت فأكثرها يشتمل البيت منه على معان. وقوله:

ويجو الخليل بخير الحبا ... ء غير مكبّ ولا قاطب

أي يتبع ما يفعله بأجل البشر ولا يكب مفكراً يندم على ما فعل، ولا طالباً حيلة يدفع بها السائل، كما قال

القائل: الكامل

لا يكتون الأرض عند سؤالمهم ... لتطلب العلات بالعيدان
وقوله وبالشول في الفلق العاشب يقول: يعطيها في أحسن حالاتها. والقلق: المطمئن من الأرض، وهو موضع
الكلاء لاستقرار الماء به. وكانت العرب تقول للرجل إذا حسنت إبله وسمنت: أخذت إبله رماحها، وأخذت
إبله سلاحها. واستنجدت عليه أي منعته أنفسها من أن توهب أو تتحر ضناً بها، كقول القائل: الخفيف
لا أخون الصديق ما حفظ العه ... د ولا تأخذ السلاح لقاحي
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هلك الفدادون إلا من أعطاهما في نجدتها ورسلاها، أي من أعطاهما
بسهولة ومع امتناعها لحسنها. وهو وقت نجدتها عليه.

وقال صلى الله عليه وسلم لقيس بن عاصم: نعم المال الأربعون، والكثر الستون، وهلك أصحاب المئين إلا
من نحر سمينها وأقر ظهرها، ومنح غزيرتها، وأطرق فحلها، وأعطاهما في نجدتها ورسلاها.
وقالت ليلي الأخيلىة: الطويل

ولا تأخذ الكوم الجلاذ سلاحها ... لتوبة في صر الشتاء الصنابر
الفدادون: أصحاب الإبل الكثيرة وقوله نجيح مليح أخو ماقط يقول: هو في السلم سهل مبتذل حلو
مقبول، ولا يمنعه ذلك من أن يكون جلدأ في الحرب. والمأقط: موضع مجتلد القوم. وهو مع هذا فطن طبن،
منقب طواف ببدنه وفكره، يظن فيصيب. فذلك قوله يجبر بالغائب.
وقوله نقاب أي منقب في الأمور، كما قال الله جل وعز: فنبقوا في البلاد، هل من محيص. وقال امرؤ
القيس: الوافر

وقد نقبت في الآفاق حتى ... رضيت من الغنيمة بالإياب
ومن هذا قيل للطرقات في الجبل: النقوب والنقاب، واحدها نقب.
وقال ابن الأيهم التغلي يصف خيلاً: الخفيف
وتراهن شزباً كالسعالى ... يتطلعن من تغور النقاب
وقال أيضاً يرثيه: الكامل

أبا دليجة من لحي مفرد ... صقع من الأعداء في شوال ؟
وإذا ذكرت أبا دليجة أسبلت ... عيني فبل وكيفها سربالي
ومعصين على نواح سدقهم ... مثل القسي ضوامر برحال
وقوارص بين العشيرة تتقى ... داويتها وسملتها بسمال
لا زال ريجان وفغو ناضر ... يجري عليك بمسيل هطال
فلنعم وفد الحى ينتظرونه ... ولنعم حشو الدرع والسربال
ولنعم مأوى المستضيف إذا دعا ... والخليل خارجة من القسطال

قوله معصين يعني ملوكاً قد عصوا بالتيجان. والنواجي: الخيل السراع. وقوله صقع من الأعداء في شوال، الصقع: المتحير الذي لا يدري أين يتوجه. يقال: صقع وصعق، وبنو تميم تقول: صعق، هي لغتهم فكأنه الذي أصابته الصاعقة فتحير لتوقع الغارة كما يتحير المتوقع الصاعقة. وقال في شوال لأنه شهر حل، ففيه يغير الناس بعضهم على بعض. فإن قال قائل: أفليس شهور الحل ثمانية، فما باله خص هذا؟ فالجواب في ذلك أنه إذا ذكر الشيء غير المقصود دخل ما كان نظيره في حكمه. قال الله تبارك وتعالى: الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم. ولم يقل على ظهورهم ولم يذكر الارتفاق لأنه يعلم أن الأمر في ذلك واحد. وكذلك قوله جل وعز: سراييل تقيكم الحر وسراييل تقيكم بأسكم ولم يذكر البرد. وقوله:

وقوارص بين العشيّة تتقى ... داويتها وسملتها بسمال

يقال: سمل بين العشيّة إذا أصلح، فإنما أراد به السيد الذي يأمرون بأمره. والفغو: نور الحناء، يقال له الفغو والفاغية. وهو من أطيب الرياح رائحةً. قال أبو عبيدة: قوله يجري عليك بمسبل هطال قال: يعني: مع مسبل، أي مع غيث مسبل. قال: فالباء تقوم مقام مع يا فتى، قال أبو العباس: والذي قال صواب وتفسيره أقرب مما قال. وتأويل هذا عند النحويين أن الباء للإلصاق، ومع للمقاربة، فهما يلتقيان في هذا الموضع. تقول: مررت بزید، فالباء ألصقت مروري به. وكذلك: كتبت بالقلم أو ضربت بالسيف. فهذا حقيقة معناه.

وقوله ولنعم حشو الدرع والسربال أي نعم الشيء في الأمن والفرع. والمستضيف: الملجأ، يا فتى. يقال أرق فلان فدعا لمضوفة، كما قال الشاعر: الطويل

وكت إذا جاري دعا لمضوفة ... أشتر حتى ينصف الساق مئزري

ويقال قسطل وقسطال يما ينور من الغبار.

وقال أيضاً يرثي فضالة قصيدة أولها: البسيط

عيني لا بدّ من سكبٍ وهمال

اخترنا منها أبياتاً نادرة كما شرطنا في أول الكتاب. من ذلك قوله:

جما عليه بماء الشان واحتفلا ... ليس الفقود ولا الهلكى بأمثال

أما حصان فلم تحجب بكتتها ... قد طفت في كل هذا الناس أحوالي

على أمرىء سوقة ممن سمعت به ... أندى وأكمل منه أيّ إكمال

أوهب منه لذي أثرٍ وسابغة ... وقينة عند شرب ذات أشكال

وخاريجٍ يزّم الألف معترضاً ... وهونة ذات شمراخٍ وأحجال

أبا دليجة من يوصى بأرملة ... أم من لأشعث ذي طمرين طملال

أم من يكون خطيب القوم إذ حفلوا ... لدى ملوكٍ أولي كيدٍ وأقوال

أم من لقومٍ أضعوا بعض أمرهم ... بين القسوط وبين الذين أزوال

خافوا الأصيلة واعتلت ملوكهم ... وحملوا من أذى غرمٍ بأثقال

أبا دليجة من يكفي العشيّة إذ ... أمسوا من الأمر في لبسٍ ولبال

أم من لأهل لويّ في مسكّعةٍ ... في أمرهم خالطوا حقّاً بإبطال
أم من لعاديةٍ تردي مملمةٍ ... كأثها عارضٌ من هضب أوعال
وما خليجٌ من المّوت ذو حدب ... يرمي الضّير بحشب الطّح والضّال
يوماً بأجود منه حين تسأله ... ولا مغب بترح بين أشبال
ليثٌ عليه من البرديّ هبريةٌ ... كالمزبانيّ عيالٌ بأصال
يوماً بأجراً منه حدّ بادرةٍ ... على كميّ بمهو الحدّ قصّال
لا زال مسكٌ وريحانٌ له أرجٌ ... على صدك بصافي اللّون سلسال
يسقي صدك ومساها ومصبحةٍ ... رفهاً ورمسك محفوفٌ بأظلال
ورثني ودّ أقوامٍ وختلتهم ... وذكره منك تغشاني بإجال
فلن يزال ثنائي غير ما كذب ... قول امريء غير ناسبه ولا سال
لعمر ما قدر أجدى بمصرعه ... لقد أحلّ بعرضي أيّ إخلال

قد كانت التّفنّس لو ساموا الفداء بما ... إليك مسمحةً بالأهل والمال
هذا آخر الشعر. قال أبو العباس: قوله لذي أثر يعني سيفاً له فرند وهو الرونق. وقوله: يزم الألف أي
يتقدمها كأنه يقودها، يعني فرساً. والخارجي: الذي يخرج بنفسه. أنشدني الرياشي لأعرابي يمدح عبد الله بن
جعفر الهاشمي: الوافر

أبا العباس، لست بخارجيٍ ... وما إن بحر جودك بانتحال
وقوله: ذات شمراخ فإنما يعني فرساً ذات غرة. والشمراخ من الغرر: السائلة في الوجه إذا دقت وطالت.
وقوله لأشعث ذي طمرين إنما يريد أنه يجبر الفقير. والأطلس: الأغبر، ومن ثم قيل للذئب: اطلس. وإنما
نسب الفقير إلى الطلسة لسوء حاله ودناءة لبسته.
والأقوال: الملوك، واحدهم قيل، وأصله قيل فخففوه كما قالوا في الميت: ميت، وفي الهين واللين: هين ولين.
وقالوا في الجمع: أقوال كما قالوا في الميت: أموات، ويقولون: هو من مقالة كندة.
والقسوط: العصيان. يقال: قسط يقسط إذا جار وخالف. قال الله عز وجل: وأما القاسطون فكانوا لجهنم
حطبا. ويقال: أقسط يقسط إذا عدل، والله يحب المقسطين.

وقوله بين القسوط وبين الدين. يقول: هم بين الطاعة وبين المعصية. والأزوال هم المتصرفون. يقال: رجل
زول وقوم أزوال. وأنشدني التوزي: الرجز

وقد أقود بالكرام الأزوال ... معدياً لذات لوثٍ شمال
وقوله واعتلت ملوكهم أي لم يعطوهم شيئاً. فذلك قوله خافوا الأصيلة واعتلت ملوكهم أي خافوا أن
يستأصلوا. وقوله: وحملوا أي لزمتهم حمالات وغرم، فهو كان يصلح هذا كله بالنجدة والغرم.
وقوله: وذات أوغال هي هضبة معروفة بعينها والمروت: أرض بعينها فيها نبات ومسائل، وهي من أرض
العالية.

وقوله يرمي الضير بجشب الطلح والضال، الضير: ضير الوادي، وهو ناحيته. وقوله: كالمزباني يريد كسرى، وإنما يعني ها هنا الأسد، فيقول هو منفرد بغيضته تجاهه الأسد أن تنزل معه كما قال أبو زيد البسيط

أفر عنه بني الخلات جرأته... لا الصيد يمنع منه وهو ممتنع
وقوله: رفهاً يقول: دائماً، في كل يوم يسقي صداه. وقوله: حملتني ود أقوام يعني أهل بيت فضالة.

باب من التعازي والمواعظ

ثم نعود إن شاء الله إلى الشعر ونصله بمثل هذا والقوة لله جل ذكره.
يروى عن جعفر بن محمد أنه قال: مات أخ لبعض ملوك اليمن فعزاه بعض العرب فقال في تعزيتة: اعلم أن الخلق للخالق، والشكر للمنعم، والتسليم للقادر، ولا بد مما هو كائن، ولا سبيل إلى رجوع ما قد فات. وقد أقام معك ما سيذهب عنك أو ستتركه، فما الجزع مما لا بد منه، وما الطمع فيما لا يرجي؟ وما الحيلة فيما سينقل عنك أو تنتقل عنه؟ قد مضت لنا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفروع بعد أصله. وأحق الأشياء عند المصائب الصبر. وأهل هذه الدنيا سفر لا يحطون الركاب إلا في غيرها. فما أحسن الشكر عند النعم، والتسليم عند الغير. فاعتبر بمن قد رأيت من أهل الجزع، هل رد أحد منهم إلى شيء من درك. واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها. وإنما ابتلاك المنعم وأخذ منك المعطي، وما ترك أكثر. فإن نسيت الصبر فلا تغفل عن الشكر، وكلاً فلا تدع. وما أصغر المصيبة اليوم مع عظم المصيبة في غد، فاستقبل المصيبة بالحسنة تستخلف بها نعماً فإنما نحن في الدنيا أغراض تنتضل فيها المنايا، وهب المصائب، مع كل جرعة شرق وفي كل أكلة غصص. لا تنال نعمة إلا بفراق أخرى ولا يستقبل معمر يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله، ولا تحدث له زيادة في أكلة إلا بنفاد ما قبلها من رزق، ولا يجيا له أثر إلا مات له أثر. فحن أعوان الختوف على أنفسنا، وأنفسنا تسوقنا إلى الفناء، فمن أين نرجو البقاء وهذا الليل والنهار لا يرفعان من شيء شرفاً إلا أشرعاً في هدم ما رفعاً وتفريق ما جمعاً فاطلب الخير وأهله، واعلم أن خيراً من الخير معطيه، وشرّاً من الشر فاعله. والسلام.

قال أبو العباس: وعن جويرية بن أسماء عن عمه أن إخوة ثلاثة شهدوا يوم تستر، فاستشهدوا، فخرجت أمهم إلى السوق يوماً لبعض شأنها، فتلقاها رجل قد حضر أمرهم فعرفته فسألته عن بنيتها. فقال: استشهدوا. فقالت: أمقبلين أم مدبرين؟ فقال: بل مقبلين. فقالت: الحمد لله، نالوا القهوز وحاطوا الذمار، بنفسي هم وأمي وأبي.

وقال خالد بن عطية قال عمر بن عبد العزيز عند وفاة ابنه عبد الملك: الحمد لله الذي جعل الموت حتماً واجباً على خلقه، ثم سوى فيه بينهم، فقال: كل نفس ذائقة الموت. فليعلم ذوو النهى صائرون إلى قبورهم، مفردون بأعمالهم، واعلموا أن عند الله مسألة فاحصة فقال جل وعز: فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون.

وقال يحيى بن إسماعيل بن أبي المهاجر عن أبيه: استشهد ابن لأبي أمامة الحمصي فكتب عمر إلى أبي أمامة: الحمد لله على آلائه وقضائه وحسن بلائه. قد بلغني الذي ساق الله إلى عبد الله بن أبي أمامة من الشهادة. فقد عاش بحمد الله مأموناً، وأفضى إلى الآخرة شهيداً، وقد وصل إليكم من الله خير كثير إن شاء الله.

وقال يزيد بن عمر الكلابي: قال رجل لعمر بن عبد العزيز عند وفاة ابنه عبد الملك: الطويل

تعزّ أمير المؤمنين فإنه ... لما قد ترى يغذى الصغير ويولد

هل ابنك إلا من سلالة آدم ... لكل على حوض المنية مورد

وقال أبو البيداء الأسدي عن شيخ من أهل الحرة، أن عمر بن عبد العزيز خطب الناس بعد وفاة ابنه عبد الملك، ونهى عن البكاء عليه، وقال: إن الله جل ذكره لم يجعل لمسيء ولا لحسن خلوداً في الدنيا، ولم يرض بما أعجب أهلها ثواباً لأهل طاعته، ولا ببلائها عقوبةً لأهل معصيته، فكل ما فيها من محبوب متروك، وكل ما فيها من مكروه مضمحل. كتب على أهلها الفناء، وأخبر أنه يرث الأرض ومن عليها. فاتقوا الله، واعملوا ليوم لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً.

ودخل عمر بن عبد العزيز على ابنه عبد الملك وكان موته بالطاعون، وكانوا يقولون: إذا مس الطاعون، وهو قرحة، فوجد لنا طمع لصاحبه في البرء منه، وإن كان خشناً يئس من صاحبه، فدخل عمر على ابنه فقال: دعني أمس قرحتك، فكره عبد الملك أن يمسه أبوه فيجزع، وكانت خشنة، فقال أو تعفيني يا أمير المؤمنين؟ فعلم عمر لم منعه، فقال ولم يا بني؟ فوالله لأن أقلمك فأجدك في ميزاني أحب إلي من أن تقدمني فتجدني في ميزانك. فقال: وأنا والله يا أمير المؤمنين لأن يكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب.

فلمسها فقال: يا عبد الملك، الحق من ربك، فلا تكونن من الممترين. فقال. ستجدني إن شاء الله من

الصابرين.

وروى عبد الله بن مسلم وغيره أن خنساء دخلت على عائشة أم المؤمنين وعليها صدار من شعر، فقالت لها: يا خنساء، أتتخذين الصدار وقد نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه؟ فقالت: يا أم المؤمنين، إن زوجي كان رجلاً متلاًفاً فأملقنا فقال: لو آتيت معاوية فاستعنته؟! فلقيني صخر أخي فقال: اين تريدين

فأخبرتني، فشاطرني ماله فأتلفه زوجي، ففعل ذلك ثلاث مرات، فقالت امرأته: لو أعطيتها من شرارها، تعنى

الإبل، فسمعتة يقول: مشطور الرجز

والله لا أمنحها شرارها ... ولو هلكت عطلت حمارها

واتخذت من شعر صدارها

فلما هلك اتخذت هذا الصدار، ونذرت لا أضعه حتى أموت.

وقال أبو محمود: قالت الخنساء: كتبت أبكي صخرأ على ما فاتته من الحياة، فأنا اليوم أبكي له من النار.

ويروى أن عائشة رضي الله عنها أنشدت الخنساء بعض أشعارها في صخر، أحسبه قولها: الوافر

ألا يا صخر إن أبكيت عيني ... لقد أضحكني دهرأ طويلا

بكيتك في نساء معولات ... وكت أحق من أبدى العويلا

دفعت بك الخطوب وأنت حي ... فمن ذا يدفع الخطب الجليلا؟

إذا قبح البكاء على قتيلٍ ... رأيت بكاءك الحسن الجميلاً
فقلت لها عائشة: أتبكين صخراً وإنما هو حجرة في النار؟ قالت: يا أم المؤمنين، ذلك والله أشد لجزعي عليه.
وقال مسلمة: لما قتل عبد الله بن عامر بن مسمع بالزاوية أتوا الحجاج برأسه، فقال اذهبوا برأسه إلى عامر
بن مسمع يعني أباه فأتوه به، فجعله في ثوبه وأقبل به إلي الحجاج وهو يبكي، فقال: أجزعت عليه؟ فقال
لا، بل جزعت له من النار. فإن رأى الأمير أن يأذن لي في دفنه، فأذن له، فدفنه.

وقال مسلمة بن محارب: قتل معاوية بن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب في الحرب التي كانت بين قتيبة
وبين سفيان بن معاوية. فلما ولي سفيان البصرة أرسل إلى خالد بن صفوان أن ابنك قتل، وقتل ابني
فأرسلت إليك أتعزي بك وتتعزي بي. فقال: أصلح الله الأمير، أنا وأنت كما قالت الباكية: المبحث
أسعدني أحواتي ... فالويل لي ولكته

فقال سفيان: جددت لي حزناً. فقال: أصلح الله الأمير، فليسلك عنك ما جددت لك العلم بأنك غير باق.
وقال كليب بن خلف: قال عبد الكريم المازني لعبد الله بن عبد الله ابن الأهمتم: كيف كان جزعك على أهل
بيتك؟ فقال: ما ترك حب الغداء والعشاء في قلبي حزناً على أحد.

وقال يزيد بن عياض بن جعدبة: كان عبد الله بن الزبير إذا أصابته مصيبة يقول: إن ابتليت فقد قتل أبي
وإمامي عثمان. فصبرت.

وقال قاتل لعبد الملك بن مروان: أدركت قتل أمير المؤمنين عثمان؟ فقال: نعم. قال: فكيف كان جزعك
عليه؟ قال: شغلني الحق لأن أدرك بثأره عن الحزن عليه.

وقال أبو عبد الرحمن العجلاني عن إسماعيل بن يسار: مات ابن لأرطاة بن سهية المري، من غطفان، يقال له
عمرو، فأقام على قبره حولاً، يأتيه كل غداة فيقول: يا عمرو، هل أنت غاد معي؟ فلما كان رأس الحول
تمثل قول لبيد: الطويل

إلى الحول ثم أسمى السلام عليكما ... ومن يبك حولاً كاملاً فقد أعتذر
ثم ترك قبر ابنه.

وقال أبو عمرو بن يزيد: مات أخ لملك بن دينار فبكى وقال: يا أخي لا تقر عيني بعدك حتى أعلم أفي الجنة
أنت أم في النار، ولا أعلم ذلك حتى ألحق بك.

وقال مسلمة بن محارب: لما أتت معاوية وفاه زيد استرجع وقال: الطويل
وأفردت سهماً في الكنانة واحداً ... سيرمي به أو يكسر السهم كاسر

وقال أبو زكريا العجلاني وغيره أن معاوية نعي إليه سعيد بن العاصي وعبد الله بن عامر فاسترجع وقال:
الطويل

إذا مات من خلف امرئ وأمامه ... وأفرد من جيرانه فهو سائر

وقال عبد الله بن مسلم: بكى رجل على شاة له أصيب بها فأكثر، فرآه رجل من باهلة يقال له الحارث بن
حبيب فقال: السريع

يا أيها الباكي على شاته ... يبكي بكاءً غير إسرار
إن الرزينات وأمثالها ... ما لقي الحارث في الدار
دعا بني معن وأشياهم ... فكلهم يعدو بمحفار
وكان للحارث المذكور عشرة بنين، فحلب يوماً في علية ووضعها فمخ فيها أسود ساخ، فبعث بالعلبة إلى
بنيه، وهو لا يدري، فشربوها فماتوا جميعاً. وقيل: بل كانوا سبعة، فسقط عليهم حائط فقتلهم.
وقال خالد بن يزيد بن بشر: جزع سليمان بن عبد الملك على ابنه أيوب، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين،
إن رجلاً حدث نفسه بالبقاء لغير جيد الرأي.
وقال صدقة بن عبد الله المازني: مات حنظلة بن عبد الله الأسيدي فجزعته عليه امرأته، فنهتها جاراتها وقلن
لها: إن هذا يحبط أجرك، فقالت: السريع
تعجب الدهر مخزونة ... تبكي على ذي شبيه شاحب
إن تسألني اليوم ما شقني ... أخبرك قولاً ليس بالكاذب
إن سواد العين أودى به ... حزن على حنظلة الكاتب
وكان حنظلة قد كتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم.
وقال إسحاق بن أيوب وعامر بن حفص ومسلمة بن محارب: قدم عروة بن الزبير على الوليد بن عبد الملك
ومعه محمد بن عروة فدخل محمد دار الدواب، فضربته دابة فخر ميتاً، ووقعت في رجل عروة الأكلة، ولم
يدع ورده تلك الليلة. فقال له الوليد: اقطعها، وإلا أفسدت عليك جسدك، فقطعها بالمنشار وهو شيخ
كبير. ولم يمسه أحد. وقال: لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا.

وقدم على الوليد في تلك السنة قوم من بني عيس، فيهم رجل ضرير فسأله الوليد عن عينيه فقال: يا أمير
المؤمنين، بت ليلة في بطن واد ولا أعلم عيسياً يزيد ماله على مالي؛ فطرقنا سيل فذهب بما كان لي من أهل
وولد ومال غير بعير وصبي مولود. وكان البعير صعباً فند. فوضعت الصبي واتبع البعير، فلم أجازه إلا
قليلاً حتى سمعت صيحة ابني، فرجعت إليه ورأس الذئب في بطنه وهو يأكله، ولحقت البعير لأحبسه فنفحني
برجله على وجهي فحطمه وذهب بعيني فأصبحت لا مال لي ولا أهل ولا ولد ولا بصر. فقال الوليد:
انطلقوا به إلى عروة ليعلم أن في الناس من هو أعظم منه بلاءً.

وشخص عروة إلى المدينة فأتته قريش والأنصار فقال له عيسى بن طلحة ابن عبيد الله: أبشر يا أبا عبد الله،
فقد صنع الله بك خيراً، والله ما بك حاجة إلى المشي. فقال: ما أحسن ما صنع الله إلي، وهب لي سبعة بنين
فممتني بهم ما شاء، ثم أخذ واحداً وترك ستة، وهب لي ست جوارح، فممتني بهم ما شاء، ثم أخذ واحدة
ثم ترك لي خمساً: يدين ورجلاً وسمعاً وبصراً، ثم قال: اللهم لئن كنت أخذت لقد أبقيت، ولئن كنت ابتليت
لقد عافيت.

وكثر الموت سنة بالبصرة، فقيل للحسن: يا أبا سعيد، ألا ترى؟ فقال: ما أحسن ما صنع ربنا. أقلع مذنب،
وأنفق ممسك، ولم يغلط بأحد.

وقال مخلد بن حمزة عن عبد الملك بن عمير قال دخل عبد الله بن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر، فقال لها: يا أمه، قد خذلني الناس فما بقي معي إلا من ليس عنده من الصبر أكثر من ساعة، والقوم يعطونني ما أردت، فما رأيك؟ قالت: أنت أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض على حقك، ولا تتمكن غلمان بني أمية من نفسك، فقال: وفقك الله، هذا رأيي، وإني لحسن الظن بري، فإن هلكت فلا يشتد علي جزعك، فإن ابنك لم يعتمد إتيان دنياه، ولا عملاً بفاحشة، ولم يجر في حكمهم، ولم يسع بغدر، ولم يكن شيء آثر عنده من رضى ربه. اللهم، إني لا أقول هذا توكيةً لنفسي وأنت أعلم بي، ولكني أقوله لتسلو عني.

وقال علي بن مجاهد عن عبد الأعلى بن ميمون: دخل عبد الله بن الزبير على أمه: فقال: كيف أصبحت يا أمه؟ فقالت: إني لوجعه، قال: إن في الموت لراحةً. قالت: والله ما أحب أن أموت حتى آتي على أحد طرفيك: إما ظفرت فقرت عيني، وإما قتلت فاحتبستك، وإن أحبهما إلي أن تكون تصلي علي وتدفني. فما دمعت عينه ولا عينها. فما ندري من أيهما نعجب.

ولقد قال: إني لا آمن إن قتلت أن أصلب، فقالت له: يا بني إن الشاة لا تألم للسلخ. فحمل علي أهل الشام وهو يتمثل: الطويل

فلست بمتباع الحياة بسبّة... ولا مرتقٍ من خشية الموت سلماً

قال أبو الحسن المدائني: وأخبرنا يزيد بن عياض قال: لما مات علي بن الحسين ضربت امرأته على قبره فسطاطاً، فأقامت فيه حولاً ثم رجعت إلى بيتها. فسمعوا قائلاً يقول: أدركوا ما طلبوا. فأجابه مجيب: بل يسسوا فانصرفوا.

قال: وأخبرنا علي بن مجاهد عن عبد الأعلى بن ميمون بن مهران عن أبيه قال: عزي رجل عمر بن عبد العزيز عن ابنه عبد الملك، فقال عمر: الذي نزل بعبد الملك أمر كنا ننتظره، فلما وقع لم ننكره. قال: وأخبرنا بشر بن عبد الله بن عمر قال: قام عمر على قبر ابنه عبد الملك، فقال: رحمك الله يا بني، لقد كنت ساراً مولوداً، وباراً ناشئاً، وما أحب أني دعوتك فأجبتني! وقال الأصمعي: دخل عمر بن عبد العزيز على ابنه عبد الملك وهو يجود بنفسه، فقال: كيف تجلك يا بني؟ قال: أجديني في الموت، فاحتسبني يا أمير المؤمنين، فإن ثواب الله خير لك مني. قال: رضي الله عنك يا بني، فإنك لم تزل تسر أباك وأنت في الخرق، وما كنت قط أسر إلي منك حيث يصيرك الله في ميزاني، فرضي الله عنك وعن كل شاهد وغائب دعا لك بخير. فجعل الناس يدعون له رجاء أن يدخلوا في دعوة عمر. وعاش عمر بعده أربعين يوماً ثم هلك.

وقال الأصمعي: قال عمر: إنما الجزع قبل فوات الشيء فإذا فاتك الشيء فإله عنه.

وقال الأصمعي: كتب رجل إلى عمر يعزيه، فأجابه: إني لم أزل في صحة منه وسلامة، موطناً نفسي على فراقه. والسلام.

وأخبرنا أبو الحسن عن حدثه عن مسلمة قال: لما مات عبد الملك كشف أبوه عن وجهه وقال: رحمك الله يا بني، سررت بك يوم بشرت بك، ولقد عمرت مسروراً بك وما أتت علي ساعة أنا بك فيها أسر مني

بك من ساعتي هذه، أما والله إن كنت لتدعو أباك إلى الجنة.

وتحدث المدائني عن سليمان بن أرقم أن عمر بن عبد العزيز قال لأبي قلابة وكان ولي غسل ابنه : إذا غسلته وكفنته فأذني به قبل أن تغطي وجهه. فظفر إليه فقال: رحمك الله يا بني وغفر لك.

وتحدث عن يحيى بن إسماعيل بن أبي المهاجر عن أبيه قال: استشهد ابن لأبي أمامة الحمصي فكتب عمر إلى أبي أمامة: الحمد لله على آلائه وقضائه وحسن بلائه. فقد بلغني الذي ساق الله إلى عبد الله بن أبي أمامة من الشهادة، فقد عاش بحمد الله في الدنيا مأموناً، وأفضى إلى الآخرة شهيداً، وقد وصل إليكم من الله خير كثير إن شاء الله.

وتحدث عن جعفر بن هلال بن حباب عن أبيه قال: كتب عمر إلى عماله: إن عبد الملك بن عمر كان عبداً من عبيد الله أحسن إليه وإلى أبيه فيه، أعاشه ما شاء ثم قبضه إليه. وكان ما علمت والله به أعلم خيراً، من صالحه شباب أهل بيته قراءةً للقرآن وتحريماً للخير. وأعوذ بالله أن تكون لي محبة في شيء من الأمور تخالف محبة الله، فإن ذلك لا يحسن بي في إحسانه إلي، وتتابع نعمه علي. وقد قلت عند الذي كان بما أمر الله عز وجل أن أقول عند المصيبة ثم لم أجد بحمد الله إلا خيراً، ولا أعلم ما بكت عيه باكية، ولا ناحت عليه نائحة، ولا اجتمع لذلك أحد، فقد هَمِينَا أهله الذين هم أحق بالبكاء عليه.

وتحدث عن محمد بن عباد أنه بلغه أن عبد الملك بن عمر لما مات، فخرج بسريره ليصلى عليه، صف عمر الناس خلفه ثم قام حيال صدره أو رأسه ثم قال: هكذا يقوم ولي الرجل من الرجل، ومن المرأة يقوم حيال وسطها. فلما صار إلى القبر دخل فيه وأخذ برأس ابنه حتى وضعه في اللحد. ثم قال: هكذا يصنع ولي الرجل بالرجل. ثم قام على قبره وجعل القبر بينه وبين القبلة. فلما رآه الناس قائماً قاموا، فقال: اجلسوا، فإنما يجب القيام على أولياء الميت.

وتحدث عن مسلمة بن عثمان أن سليمان بن عبد الملك قال لعمر بن عبد العزيز: هل يكون المؤمن في حالة تنزل به المصيبة فلا يأل لها؟ قال لا يا أمير المؤمنين، لا يكون أن يستوي عندك ما تحب وما تكره، أو تكون الضراء والسراء عند أحد سواء. ولكن معول المؤمن الصبر.

وقال عن عبد الله بن الأسود: لما مات عاصم بن عمر بن عبد العزيز جرع عليه أخوه عبد الله فرثاه.

وأنشدني هذا الشعر الرياشي: الطويل

إن تك أحرانٌ وفائض عبرةٍ ... أثرن دماً من داخل الجوف منقعا

تجرعتها في عاصمٍ فاحتسبتها ... لأعظم منها ما أحتسى وتجراً

فليت المنايا كنّ صادفن غيره ... فعشنا جميعاً أو ذهبن بنا معا

وقال إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب يرثي أخاه محمد بن عبد الله: البسيط

أبا المنازل يا عبر القوارس من ... يفجع بمتلك في الدنيا فقد فجعا

الله يعلم أنني لو خشيتهم ... وأوجس القلب من خوف لهم فرعا

لم يقتلوك ولم أسلم أخي لهم ... حتى نعيش جميعاً أو نموت معاً

وكان قتله في المعركة عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله وهو الذي قتل إبراهيم أخاه.

وقال أبو الحسن: أخبرنا العباس بن معاوية قال: عزى محمد بن الوليد ابن عتبة بن أبي سفيان عمر بن عبد العزيز عن ابنه عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين، ليشغلك ما أقبل من الموت إليك عمن هو في شغل عما دخل عليك، وأعدد لما ترى علة تكون لك جنة من الحزن وستراً من النار. فقال عمر: فهل رأيت حزناً ينكر أو غفلةً أنه لها؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لو أن رجلاً ترك تعزية رجلٍ لعلمه وانتباهه لكنته، ولكن الله قضى أن الذكرى تنفع المؤمنين.

وقال أبو الحسن: دخل مسلمة على عمر في مرضه، فقال: يا أمير المؤمنين، ألا توصي؟ قال: وهل لي مال أوصي فيه؟ فقال مسلمة: هذه مئة ألف أبعث بها إليك فهي لك أوص فيها. قال: فهلا غير ذلك يا مسلمة؟ فقال: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: تردها من حيث أخذتها. فبكى مسلمة وقال: يرحمك الله، فقد ألتت منا قلوباً كانت قاسية، وزرعت لنا في قلوب المؤمنين مودة، وأبقيت لنا في الصالحين ذكراً.

وقال أبو الحسن عن سعيد بن عامر عن محمد بن عمرو بن علقمة قال: سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول: ما أنعم الله على عبد نعمةً فانتزعها منه وعاضه من ذلك الصبر إلا كان ما عوضه أفضل مما انتزع منه. ثم قرأ: إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب.

وقال مقسم، وهو مولى لبعض أهل المدينة، يرثي عمر بن عبد العزيز رحمه الله: البسيط
لو أعظم الموت خلقاً أن يلاقيه ... لأعظم الموت أن يلقاك يا عمر
لهفي عليك ولهف الموجهين معي ... على العدول التي تعبى لها الجفر
ثلاثة لا ترى عينٌ لهم شبيهاً ... تضم أعظمهم في المسجد الجلر
فقد بلغت ولم تبلغ فعالمهم ... ما فوقه لإمام مبصرٍ بصر
قال أبو الحسن: قال محمد بن حرب الهلالي: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عزى يقول: آجركم الله ورحمكم. وإذا هنا قال: بارك الله لكم وبارك عليكم.

وقال ابن الأعرابي: وقف جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس على قبر أخيه محمد بن سليمان فقال: اللهم إني أمسيت أرجوك له وأخافك عليه، اللهم فصدق رجائي وأمن خوفي، إنك على كل شيء قدير.

قال الأصمعي: ولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كعب بن سور قضاء البصرة. قال أبو العباس: وكان سبب ذلك أنه حضر مجلس عمر، فجاءت امرأة فقالت: يا أمير المؤمنين، إن زوجي صوام، قوام. فقال عمر: إن هذا لرجل صالح، ليتني كنت كذا. فردت عليه الكلام فقال عمر كما قال. فقال كعب بن سور الأزدي: يا أمير المؤمنين، إنما تشكو زوجها، تخبر أنه ليس لها منه حظ. فقال: علي بزوجها. فأتي به، فقال له: ما بالها تشكوك، وما رأيت امرأة أكرم شكوى منها؟ فقال: يا أمير المؤمنين: الرجز
إني امرؤ أفرعني ما قد نزل ... في الحجر والتحل وفي السبع الطول
فقال له كعب: الرجز

إن لها عليك حقاً يا بعل ... فأوفها الحقّ وصمّ ثم وصلّ

فقال عمر لكعب: اقض بينهما. فقال: نعم، يا أمير المؤمنين، أحل الله للرجل أربعاً، فأوجب لكل واحدة ليلة، فلها في كل أربع ليال ليلة، ويصنع بنفسه في الثلاث ما شاء. فألزمه ذلك. وقال لكعب: اخرج قاضياً على البصرة.

قال أبو العباس: اتصل هذا بخبر الأصمعي.

فلم يزل عليها حتى قتل عثمان. فلما كان يوم الجمل، خرج مع أهل البصرة وفي عنقه مصحف، فقتل هو يومئذ وثلاثة إخوة له أو أربعة. فجاءت أمهم فوجدتهم في القتلى، فحملتهم وجعلت تقول: المتقارب

أيا عين بكّي بدمعٍ سرب ... على فتيةٍ من خيار العرب

فما ضرهم غير حين التفو ... س أيّ أميري قريشٍ غلب

وقال أبو الحسن: أخبرني مخبر قال: كتب غيلان إلى رجل من إخوانه أصيب بابنه فجزع عليه: أما بعد. فإن الله أعطاك هبته، وجعل عليك أدبه ومؤنته، وأنت تحشى فنتته، فاشتد بذلك سرورك. فلما قبض الله هبته، وكفأك أدبه ومؤنته، وأمنت فنتته، اشتد لذلك جزعك، فأقسم بالله أن لو كنت تقياً لعزيت على ما هنت عليه، وهنتت على ما عزيت عليه. فإذا أتاك كتابي فاصبر على الأمر الذي لا غنى بك عن ثوابه، ولا صبر لك على عقابه. واعلم أن كل مصيبة لم يذهب فرح ثوابها حزناً، فذلك الحزن الدائم.

وقال أبو الحسن: لما هلك ابن عمر بن ذر وقف عليه أبوه وهو مسجىً فقال: يا بني، ما علينا من موتك غضاضة، وما بنا إلى أحد سوى الله من حاجة. فلما دفن قام على قبره فقال: يا ذر غفر الله لك، لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك، لأننا لا ندري ما قلت وما قيل لك. اللهم، إني قد وهبت له ما قصر فيه مما افترضته عليه من حقي، فهب لي ما قصر فيه من حقك، واجعل ثوابي عليه له، وزدني من فضلك فإني إليك من الراغبين؟ فسئل عنه فقيل: كيف كان معك؟ فقال: ما مشيت معه ليل قط إلا كان أمامي، ولا بنهار قط إلا كان خلفي، وما علا سطحاً قط وأنا تحته.

قال أبو الحسن: أخبرني بعض قريش، يرفع الحديث إلى ابن عباس قال: هلك رجل من أهل المدينة فشهد جنازته عبد الله بن العباس رضي الله عنهما فلما دفن الرجل قال بعض من شاهده: ليت شعري إلى ماذا صار صاحبنا؟ فسمعه ابن عباس فقال: أما تدري؟ قال: لا والله، قال: لكفي والله، أدري، قال الله جل ثناؤه:

فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم. وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم، وليس صاحبنا من المكذبين الضالين. فإن أخطأه أن يكون من المقربين فلن يخطئه أن يكون من أصحاب اليمين. قال: ففرح جميع القوم بما سمعوا.

وقال عن عوانة: لما بلغ خالد بن الوليد موت أبي بكر رضي الله عنه قال: الحمد لله الذي أمات أحب خلقه إلي، واستخلف أبغض الأمة إلي. وقد استخلف عليكم أمين أمتكم، يعني أبا عبيدة بن الجراح.

وقال الأصمعي: قام خالد بن الوليد على رأس أبي عبيدة، فستره بردائه من الشمس، فقيل له: ما أردت إلى هذا؟ قال: أردت إعزاز الإسلام.

وقال أبو الحسن عن محمد بن الفضل عن أبي حازم قال: مات عقبة بن عياض بن غم الفهري فعزى رجل

أباه فقال: لا تجزع عليه، فقد قتل شهيداً وكان من سادة الجيش فقال: وكيف لا أصبر وقد كان في حياته زينة الحياة الدنيا، وهو اليوم من الباقيات الصالحات.

وأخبر عن عامر بن الأسود قال: استشهد لمولى لبني نوفل بنون، فعزاه رجل فقال: آجرك الله في الباقيين، ومتعك بالفانين. فقال له رجل لعلك غلظت. فقال: لا، إن الله يقول: ما عندكم ينفد وما عند الله باق. وأخبر عن عمر بن مجاشع قال: قال نافع، مولى عمر بن الخطاب: سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يقول: نسأل الله تمام النعمة. فقال: أتدري ما تمام النعمة؟ إن تمام النعمة النجاة من النار. وسمع صلى الله عليه وسلم رجلاً يقول: اللهم ارزقني صبراً. فقال: يا عبد الله، سألت بلاءً، فاسأله الله العافية.

وعن عمر بن مجاشع قال: قال رجل لابن عمر وعزاه: أعظم الله أجرك. فقال ابن عمر: نسأل الله العافية. قال: وهذا حديث نمليه وقد مضى في صدر الكتاب ناقصاً فأتممناه في هذا الموضع ليتوفر ويتصل به ما بعده: تحدث المدائني عن يعقوب بن داود عن بعض أشياخه أن عبيد الله ابن العباس بن عبد المطلب كان عاملاً لعلي بن أبي طالب عليه رضي الله عنه السلام على اليمن، فخرج إلى علي، واستخلف على صنعاء عمرو بن أراكة الثقفي. فوجه معاوية بسر بن أراكة، أحد بني عامر بن لؤي، فقتل عمرو ابن أراكة فيمن قتل. فجزع عليه أخوه عبد الله. فقال أبوه: الطويل

لعمري لئن أتبت عينيك ما مضى ... به الدهر أو ساق الحمام إلى القبر
لتستفدن ماء الشئون بأسره ... ولو كنت تمريهين من ثبج البحر
لعمري لقد أردى ابن أراكة فارساً ... بصنعاء كالليث الهزبر أبي الأجر
فقلت لعبد الله إذ حنّ باكياً ... تعزّ، وماء العين منحدرٌ يجري
وأنشدني التوزي عن أبي زيد: إذ حنّ باكياً
تبين فإن كان البكا ردّ هالكاً ... على أحدٍ، فاجهد بكاك على عمرو
ولا تبك ميتاً بعد ميتٍ أجنّه ... علي وعبّاسٌ وآل أبي بكر

قال أبو العباس: وكان بسر قد قتل خلقاً باليمن. يقول بعضهم: حتى أخاض الخيل في الدماء. وكان في من قتل طفلان لعبيد الله بن العباس أخذهما من الكتاب. فروي أنه قتلها وهما يقولان: يا عم لا نعود؟ وأما الرواية الفاشية التي كأنها إجماع، فإنه أخذهما من تحت ذيل أمهما وهي امرأة من بني الحارث بن كعب، ففي ذلك تقول لما خرج بهما من عندها: مجزوء الوافر

ألا من بين الأخوي ... ن أمهما هي التكلي
تسائل من رأى ابنيها ... وتستغي فما تبغي
وقالت أيضاً: البسيط

يا من أحسن بني اللّدين هما ... كالدرّتين تشظّي عنهما الصّدف
يا من أحسن بني اللّدين هما ... قلبي وطرفي قلبي اليوم مختطف

يا من أحسنَ بنَيِّ اللّذين هما ... مَخَّ العظام، فمخِّي اليوم مزدهف
تبئتُ بسراً وما صدقتُ ما ذكروا ... من قولهم ومن الإفك الذي اقترفوا
أنحى على ودحي شبليّ مرهفةً ... بغياً، كذا وعظيم البغي يقترف
قال أبو الحسن: مات الحسن بن الحصين، أبو عبيد الله بن الحسن وعبيد الله يومئذ قاضي البصرة وأميرها
فتذاكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره، فأجمعوا على أنه إذا ترك شيئاً كان يصنعه فقد جزع، فأتاه
صالح المري فعزاه فقال له: يا هذا، إن كانت مصيبتك أحدثت لك عظة في نفسك فبعم المصيبة مصيبتك.
وإن كانت لم تحدث لك عظة في نفسك فمصيبتك في نفسك أعظم من مصيبتك بأبيك وأخبر عن عامر بن
حصين والمثنى بن عبد الله قالاً: مات أخ محمد ابن سيرين فجزع عليه، فلما كان في مؤخر الدار ذكر أنه لم
يسرح لحيته. فجلس ودعا بمشط، فسرح لحيته ورأسه ثم خرج.
وقال الأصبعي: كان ابن سيرين يترجل غباً، فجاءه نعي أخيه في يوم ترجله فترجل.
وأخبر أبو الحسن عن عبد الله بن مرة عن بعض أشياخه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للخنساء: ما
أقرح ماقي عينيك؟ قالت: بكائي على السادات من مضر؟! قال: يا خنساء، إنهم في النار. قالت: ذاك
أطول لعويلي عليهم.

وقال عن أبي محمود: قالت الخنساء: كنت أبكي لصخر على الحياة فأنا اليوم أبكي له من النار.
وأخبر عن محمد بن عبد الحميد قال: نعى رجل لرجل ابنه فقال: قد نعي إلي قبل ذلك، قال: ومن أعلمك
بموته، وما نعاه غيري ممن يعرفك؟ قال: نعاه الله حيث يقول لنبيه: إنك ميت وإنهم ميتون.
وأخبرني عن أبي المقدام، وكان كبيراً، أدرك سعيد بن المسيب قال: بلغني أن أبا مسلم الخولاني كان يقول:
لأن أقدم سقطاً أحب إلي من أن أدع مئة من خولان، ولأن أقدم فرطاً أحب إلي من أن أخلف خولان كلها.

باب من التعازي والتعزي في الأشعار

قالت ليلي الأخيلية، قال أبو العباس: قرأته على الرياشي: الطويل
أقسمت أبكي بعد توبة هالكاً ... وأحفل من دارت عليه الدوائر
لعمرك ما بالموت عارٌّ على القتي ... إذا لم تصبه في الحياة المعابر
فلا الحيّ ممّا يحدث الدهر سالمٌ ... ولا الميت إن لم يصبر الحيّ ناشر
وكلّ شبابٍ أو جديدٍ إلى بلى ... وكل امرئٍ يوماً إلى الله صائر
فلا يبعدنك الله يا توب هالكاً ... أخا الحرب إذ دارت عليك الدوائر
فأقسمت لا أهنك أبكيك ما دعت ... على فنن ورقاء أو طار طائر
قتيل بني عوفٍ فيا لهفي له ... وما كنت إياكم عليه أحاذر
قال أبو العباس: وأشعار المراثي كثيرة، وإنما نختار عيوناً من جميعها ومن الشيء أحسنه. وكذلك الكلام غير
الشعر. ولم تكن ليلي الأخيلية امرأة لتوبة، ولا بينهما نسب لاصق إلا أنهما جميعاً من بني عقيل بن كعب بن
ربيعة ابن عامر بن صعصعة. وكانت تحبه ويحبها. وروت الرواة أن خلاها بها مرة فأرادها على ما يريد

الرجال، فأبت واثمأزت. ففي ذل تقول: الطويل
وذي حاجة قلنا له لا تبح بها ... فليس إليها ما حيت سيل
لنا صاحباً لا ينبغي أن نخونه ... وأنت لأخرى صاحباً و خليل
فأقاما دهرأ على حب عفيف، وهي السنة الجارية في العشاق الماضين من بني عذرة، وغيرهم.

وكان سبب قتل توبة أن بني عوف كانوا يطلبونه فأحسوه، وقد قدم من سفر معه عبيد الله بن الحمير،
أخوه، وقابض، مولاه. وبينه وبين الحي ليلة، فأتوه طروقاً، فهرب أصحابه وأسلماه فقتل. ففي ذلك تقول
ليلي: الطويل

دعا قابضاً والمرهفات تنوشه ... فقبحت مدعواً ولّيت داعيا
فليت عبيد الله حلّ محلّه ... فأودى ولم أسمع لتوبة ناعيا
وقالت: الطويل

عيني على الحزم ألا فابكي على ابن حمير ... بدمع كفيض الجدول المتفجر
لتبك عليه من خفاجة نسوة ... بماء شؤون العبرة المتحدّر
خفاجة بن عقيل.

سمعن بهيجا أو جفت فذكرنه ... وقد يبعث الأحران طول التذكّر
كأنّ فتى الفتيان توبة لم ينخ ... بنجدٍ ولم يطلع مع المغوّر
ولم يرد الماء السّدام إذا بدا ... سنا الصّبح في أعقاب أخضر مدبر
السّدام: الآبار القديمة المندفنة. وجمعها سدوم وقولها: سنا الصّبح، السنا: من الضوء، مقصور كقول الله جل
وعز: يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار. والسنا: من الشرف، ممدود.
وقولها: في أعقاب أخضر مدبر، تعني الليل، تريد بأخضر: أسود. وجعلته مدبراً لورود الصّبح.
ولم يقدر الخضم الألدّ ويملاً ال ... جفان سديفاً يوم نكباء صرصر
النكباء: الريح بين الريحين. والسديف: شقق السنام، والصرصر: الريح الشديدة الصوت، الباردة.
ألا ربّ مكروب أجبت وناثل ... فعلت، ومعروفٍ لديك ومنكر
فيا توب للمولى، ويا توب للتدى ... ويا توب للمستنيح المتوّر
فقال لها رجل: ما كان توبة كما ذكرت. وقلت فتى الفتيان وما كان كذاك. فقالت: إن كنت كاذباً فأشل
الله عشرك، وأدام فقرك. كان والله شديد المرة، لين العطفة، يرضيه أقل مما يسخطه.
وقال أيضاً: الطويل

نظرت وركنٌ من أبانين دونه ... مفاوز حسمي أي نظرة ناظر
كأنّ فتى الفتيان توبة لم ينخ ... قلائص يفحصن الحصى بالكراكر
ولم بين أبراداً عناقاً لفتية ... كرامٍ ويرحل قبل فيء الهواجر
فتى لا تخطاه الرّفاق ولا يرى ... لقدّر عيالاً دون جارٍ مجاور

فإن تكن القتلى بواءً فإنكم ... فتى ما قتلتم آل عوف بن عامر
البواء: الأمثال. يقال: باء فلان بفلان إذا قتل به. تقول: فإن تكن القتلى يبوء بعضها ببعض، فإن توبة فوق ذلك.

وأما قوله جل وعز: إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك، إنما هو إن فعلت أن تحتمل الإثمين المتساويين: الذي رد عليك قربانك فلم يقبل من أجله، وقتلك إياي، وكان كل واحد منهما كفاء الآخر. هذا اشتقاق هذا المعنى. ومن ذلك قول مهلهل بن ربيعة حين قتل بجير بن الحارث بن عباد: بؤ بشسع كليب، فقيل للحارث بن عباد: إن ابنك بجيراً قد قتل. قال: إنه لأعظم قتيل بركة إن أصلح الله به بين ابني وائل. قيل: إن مهلهلاً لما قتله قال: بؤ بشسع كليب. فعند ذلك دخل الحارث في حربهم ولم يكن دخلها.

رجع الشعر

وإلا يكن فيها بواءً فإنكم ... ستلقون يوماً سره غير صادر
وكت إذا مولاك خاف ظلامه ... دعك ولم يعدل سواك بناصر
وقد كنت مرهوب الجنان وبيناً ... ومجدام سير دائباً غير فاتر
فنعم الفتى إن كان توبة فاجراً ... وفوق الفتى إن كان ليس بفاجر
أنته المنايا دون درع حصينة ... وأسر خطي وجرداء ضامر
فبالله تبني بيتها أم عاصم ... على مثله أخرى الليالي الغوابر
وروت الرواة أنها زارت قبره، فجعلت تقول: يا توبة، يا توبة! ثم أقبلت على من معها بعد أن سلمت على القبر. فقالت: ما كذبي قبلها. فقيل: فيم ذلك، وما تبينا منه كذباً. قالت لأنه قال في بعض قوله: الطويل
ولو أن ليلى الأخيلية سلمت ... علي ودوني تربةً وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا ... إليها صدىً من داخل القبر صائح

قال: وهذا الكلام غاية المدح، لا لأنها جهلت حال الموتى ولكنها دلت على أنه لم تعرف منه كذبة قط حتى يعتد عليه بما ميتاً.

وقال سليمان بن قتة، وهو مولى لبني تيم، واقطاعه إلى بني هاشم يذكر يوم الحسين بن علي بن أبي طالب رحمه الله: الطويل

مررت على أبيات آل محمد ... فلم أرها كعهدها يوم حلت
فلا يبعد الله الديار وأهلها ... وإن أصبحت من أهلها قد تحلت
وكانوا رجاءً ثم عادوا رزية ... فقد عظمت تلك الرزايا وجلت
وإن قتيل الطف من آل هاشم ... أذل رقاب المسلمين فذلت
وعند غني قطرة من دمائنا ... سنجزبهم يوماً بما حيث حلت
إذا افتقرت قيس جبرنا فقيرها ... وتقتلنا قيس إذا التعل زلت
قال أبو العباس: أنشدنيها الرياشي، وأنشدني ما بعدها مما أمليه إلى انقطاعه.

وقال الفرزدق يذكر ابني مسمع، وكان قد قتلهما معاوية بن يزيد ابن المهلب بعد قتل ابنه، وكانا مروانيين، وكان سائر بكر بن وائل مع يزيد بن المهلب، وكان المتوفى مولى بني قيس بن ثعلبة، على شرطة يزيد، فقتل لسبب عنده مع يزيد فبكته بكر بن وائل وهو مولى وأعرضت عن ابني مسمع وهما صليبة. فقال

الفرزدق: الطويل

تبكّي على المتوفى بكر بن وائل ... وتنهى عن ابني مسمع من بكاهما
غلامان شبّا في الحروب وأدركا ... كرام المساعي قبل وصل لهما
ولو كان حيّاً مالكٌ وابن مالكٍ ... إذن أوقدا نارين يعلو سناهما
وقال الفرزدق أيضاً يرثي ابنين له ماتا في مدة يسيرة: الطويل
بفي الشامتين التّرب إن كان مسني ... رزية شبلي مخدرٍ في الصّراغم
وما أحدٌ كان المنايا وراءه ... وإن عاش أياماً طوالاً بسالم
أرى كلّ حيٍّ لا تزال طليعةً ... عليه المنايا من ثنايا المخارم
يذكرني ابني السّماكان موهناً ... إذا ارتفعا فوق النجوم العواتم
وقد رزىء الأرقام قبلي بنهم ... وإخوانهم فأقني حياء الكرائم
ومات أبي والمنذران كلاهما ... وعمرو بن كلثوم شهاب الأرقام
وقد كان مات الأقرعان وحاجبٌ ... وعمرو أبو عمرو وقيس بن عاصم
وقد مات بسطام بن قيس بن خالدٍ ... ومات أبو غسان شيخ اللهازم
وقد مات خيراهم فلم يهلكاهم ... عشية بانا، رهط كعبٍ وحاتم
فما ابنك إلا من بني النّاس فاصبري ... فلن يرجع الموتى حين المآتم
ويقال: حين.

وماتت امرأة له أيضاً وبها جمل، فقال: الطويل

وجفن سلاحٍ قد رزئت فلم أنح ... عليه ولم أبعث عليه البواكيا
وفي جوفه من دارمٍ ذو حفيظةٍ ... لو أن المنايا أرجأته لياليا
وقال بعض الشعراء يعزي رجلاً عن ابنه: الكامل
اصبر لكلّ مصيبةٍ وتجلّد ... واعلم بأنّ المرء غير محلّد
وإذا ذكرت محمداً ومصابه ... فاذا ذكر مصابك بالنبيّ محمّد

وقال الحكمي وأحسن جداً: الطويل

طوى الموت ما بيني وبين محمّدٍ ... وليس لما تطوي المنية ناشر
لئن أوحشت مّمن أحبّ منازلٌ ... لقد أنست مّمن أحبّ المقابر
وكنت عليه أحذر الموت وحده ... فلم يبق لي شيءٌ عليه أحاذر
وهذا يشبه قول التيمي في يزيد بن مزيد: الوافر
لقد عزّى ربّعة أن يوماً ... عليها مثل يومك لا يعود

وقال حارثة بن بدر الغداني يرثي زياداً: البسيط
صلّى الإله على قبرٍ وطهره ... عند الثوية يسقى فوقه المور
زقت إليه قريشٌ نعش سيدها ... فالجود والحزم فيه اليوم مقبور
أبا المغيرة والدنيا مفجعة ... وإن من غرت الدنيا لمغرور
قد كان عندك للمعروف معرفة ... وكان عندك للتكراء تنكير
وكتت تغشى وتعطي المال من سعة ... إن كان بابك أضحى وهو مهجور

فالتاس بعدك قد خفت حلومهم ... كأتما نفخت فيها الأعاصير
وقال خليلد عيين يرثي المنذر بن الجارود العدي وكانت بحرية ابنة المنذر تحت عبيد الله بن زياد، ومات

المنذر بالسند في موضع يقال له قصدار: السريع
بحري، قومي فاندبي منذراً ... وابكي ابن بشر سيّد الوافدين
وأبكي أبا الأشعث لما ثوى ... بالهند لم يقفل مع القافلين
جاور قصدار وأكنافها ... تسفي عليه الريح مور اللّرين
في جدث عافٍ، بمهجورة ... ناء عن الزوّار والعائدين
فأصبح المجد بها ثاويًا ... بين صفاً صمّ وصخر رزين
لله قصدارٌ وأكنافها ... أيّ فتى دنيا أجنّت ودين
قد علمت نفسي فما أمتري ... حقاً سوى الظنّ وقول اليقين
ما الحميّ والميت فيما ترى ... من حدث الدهر وريب المنون
إلاّ كغادٍ راح أصحابه ... أو رائحٍ في أثر المغتدين
مات بها الجود وأودى التدى ... وانقطع الخير عن السّاتلين
وقال جرير يرثي عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه: البسيط
نعى النّعاة أمير المؤمنين لنا ... يا خير من حجّ بيت الله واعتمرا
حمّلت أمراً عظيماً فاصطبرت له ... وقمت فيهم بأمر الله يا عمرا
فالشمس طالعة ليست بكاسفة ... تبكي عليك نجوم الليل والقمر
وقال بكير بن معدان البربوعي يرثي يحيى بن مبشر، وكان قتل بمسكن مع مصعب بن الزبير: السريع

صلّى على يحيى وأشياعه ... ربّ غفورٌ وشفيع مطاع
لما عصى المصعب أصحابه ... أدّى إليه الكيل صاعاً بصاع
أمّ عبيد الله محزونة ... ما نومها بعدك إلاّ الرواع
يا فارساً، ما أنت من فارس ... موطأً البيت رحيب النّراع
قوَال معروفٍ وفعله ... عقارٍ مثنى أمّهات الرّباع
لا تخرج الأضياف من بيته ... إلاّ وهم منه رواء شباع

من يك لا ساء فقد ساءني ... ترك أبينيك إلى غير راع
وحدثنا بعض جلساء القحذمي، وذكر امرأة من الأعراب، فقال: كان لها أربعة بنين، وكان يمر بها إخوة
أربعة غادون لشأنهم، وكانت تأنس بهم لمشاكلتهم بنبيها في العدد والأسنان، ثم أصيب بنوها جميعاً إما
بطاعون أو ما يشبهه فاجتنبها الإخوة الأربعة إبقاءً عليها من الحزن إذا رأهم، ثم عزموا عزيمةً على المرور بها
مرحاً وبغياً. فلما رأهم ذرفت عيناها وتمثلت: الكامل
لن يلبث القرناء أن يتفرقوا ... ليلٌ يكرّ عليهم ونهار
فاعتل أحدهم فمات، فغبر الثلاثة لا يقربونها، ثم فعلوا فلما رأهم تمثلت: السريع
كلّ بني أمّ وإن أكثرت ... يوماً يصيرون إلى واحد
فلم يلبث واحد منهم أن مات. وغير الاثنان لا يقربانها، ثم اجتازا بها على نحو ما فعلوا من المرح والبدالة،
فلما رأتهما قالت: الوافر
وكلّ أخ مفارقة أخوه ... لعمر أيبك إلا الفرقدان
فمات أحدهما فاجتنبها الباقي دهرًا. ثم مر بها فتمثلت: السريع
والواحد الفرد كمن قد مضى ... ليس بمتروكٍ ولا خالد
فقال: أقبليني جعلني الله فداك، فإني والله غير عائد.
قال أبو العباس: وهذان بيتان قديمان لا يعرف قائلهما. ويروى أن أبا بكر الصديق رحمه الله كان ينشدهما،
فبعض الناس يقول: هما له: مجزوء الكامل
تنفكّ تسمع ما حيي ... ت بهالكِ حتى تكونه
والمرء قد يرجو الرجا ... مغيباً والموت دونه
وقال وضاح اليمى: المنسرح
يا موت ما إن تزال معترضاً ... لآمل دون منتهى الأمل
لو كان من فرّ منك منفلاً ... إذن لأوشكت رحلة الجمل
وقال معن بن أوس المزني: الطويل
ألم تعلمي عمراً وسفياً بعده ... وضمرة أمسى فاتي ومسافع
أولئك لا أنتنّ كانوا فوارسي ... بهم كنت أستخشي العدا وأدافع
فأصبحت أرقى الشّامتين رقاهم ... ليربو طفلٌ أو ليحبر طالع
وصانعت في أشياء لو أنّهم معي ... لباعدت حتى تستقيد التّوابع
قال: وحدثني الرياشي في إسناد قال: أنشد عروة بن الزبير قوله بهم كنت أستخشي العدا وأدافع، فقال
عروة: فهلاً قال: فبالله، أستخشي العدا وأدافع ولا ينكسر عليه شعره قال الرياشي: وأنشد عبد الله بن
عمر قول حسان بن ثابت: المنسرح
يأبي لي السيف واللسان وقو ... لم يضاموا كلبلة الأسد

فقال: هلا قال: يأي لي الله. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال محمد بن حرب الهلائي: أتى حيان بن سلمى العامري قبر عامر بن الطفيل ولم يكن شهده فقال: أنعم صباحاً أبا علي، والله لقد كنت سريعاً إلى المولى بوعدك، بطيئاً عنه بإيعادك، ولقد كنت أهدى من من النجم، وأجرأ من السيل. ثم النفث إليهم فقال: كان ينبغي أن يصيروا قبر أبي علي ميلاً في ميل. وقال محمد بن علي المنسوب إلى أمه الحنفية: أيها الناس، إنكم في هذه الدار أغراض تنتصل فيكم المنايا، لن يستقبل أحد منكم يوماً جديداً من عمره إلا بآخر من أجله، فأية أكلة ليس معها غصص، أم أية شربة ليس معها شرق؟ فاستصلحوا ما تقدمون عليه بما تظعون عنه، فإن اليوم غنيمة، وغداً لا يدري لمن هو. أهل الدنيا أهل سفر، يملون عقد رحالهم في غيرها. قد خلت من قبلنا أصول نحن فروعها. فما بقاء الفرع بعد أصله؟ أين الذين كانوا أطول منا أعماراً وأبعد منا آمالاً؟ أتاك يا بن آدم ما لا ترده، وذهب عنك ما لا يعود إليك. فلا تعدن عيشاً منصرفاً عيشاً مالك منه إلا لذة تردلف بك إلى حمامك، وتقربك من أجلك، فكأنك قد صرت الحبيب المفقود والسواد المخترم. فعليك بذات نفسك، ودع ما سواها، واستغن بالله يغنك.

ومما يستحسن من قول متمم بن نويرة الدال على صحة عقله وتمكن الحزن من قلبه، وقلة نسيانه أخاه، أنه كان لا يمر بقبر، ولا يذكر الموت بحضرته إلا قال: يا مالك ثم فاضت عبرته، ففي ذلك يقول: الطويل وقالوا أتبكي كل قبر رأيت... لقبر ثوى بين اللوى والدكادك فقلت لهم إن الأسي يبعث البكا... ذروني فهذا كله قبر مالك ومن هذه المختصرات قول هشام بن عقبة، أخي ذي الرمة، وكان له إخوة جماعة فمات أكبرهم، وكان يقال له: أوفى ثم مات ذو الرمة، وكان يقال له: غيلان فقال هشام: الطويل تسليت عن أوفى بغيلان بعده... عزاءً وجفن العين بالماء مترع ولم تنسني أوفى المصيبات بعده... ولكن نكء القرع بالقرح أوجع فاختصر هذا اختصاراً يوفر على كل واحد منهما نصيبه من الحزن. ويروي من غير وجه أن حسان بن ثابت دخل على النابغة الذبياني فتلقته الخنساء خارجةً من عنده، فأنشده قصيدته التي يقول فيها: الكامل

أولاد جفنة حول قبر أبيهم... قبر ابن مارية الكريم المفضل يغشون حتى ما تهرّ كلابهم... لا يسألون عن السواد المقبل

فقال: إنك لشاعر وإن أخت بني سليم لبكاءة.

قال أبو العباس: فمما قدمناه من شعرها واستحسنناه من تلخيصها قولها: المتقارب أعيني جوداً ولا تجمدا... ألا تبكيان لصخر التدى؟

ألا تبكيان الجريء الجميل... ألا تبكيان الفتى السيّد؟

فجعلته ساد حدثاً ووكدت ذلك وزادت فيه وأوضحته بأن قالت:

طويل العماد عظيم الرّما... د ساد عشيرته أمردا

إذا القوم مدّوا أيديهم ... إلى الجمد مدّ إليه يدا
فقال الذي فوق أيديهم ... من الجمد ثمّ نما مصعدا
يكلفه القوم ما عاظم ... وإن كان أصغرهم مولدا
ترى الجمد يهوي إلى بيته ... يرى أفضل الزاد أن يجمدا
فقرنت له الجمد بالحمد.

ويقال: بل صح أنه كان من دعاء سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج : اللهم ارزقني مجداً وحمداً فإنه لا مجد
إلا بمال، ولا حمد إلا بفعال.

وكان سبب ميته أخيها صخر أنه شهد حرباً فأبلى فيها وتقدم، فحمل عليه رجل من القوم فطعنه في
خاصرته، فتحامل في الجراحة فجوي منها ولم يفصد فخرج منها كمثل اليد، وأضنته حولاً أو حولين لا
ينبعث، فسمع من يسأل امرأته عن علتها، وأين بلغت منه، فقالت امرأته قولاً يدل على البرم به، والمثل
لصحبته: لا حي يرجي، ولا ميت فيحتسب.

والنفت إلى أمه فإذا دموعها تجري فقال: الطويل
أرى أم صخر ما تجفّ دموعها ... وملّت سليمان مضجعي ومكاني
وما كنت أخشى أن أكون جنازة ... عليك، ومن يغترّ بالحدثان
فأيّ أمرئ ساوى بأمّ حليمة ... فلا عاش إلا في شقاً وهوان
لعمري لقد نبتت من كان نائماً ... وأسعت من كانت له أذنان
أهمّ بأمر الحزم لو أستطيعه ... وقد حيل بين العير والتروان
فلما رأى ذلك برم بتلك الخراجة من جنبه، فأشاروا بقطعها ففعل، فلما قطعها ينس من نفسه، ففي ذلك
يقول: الطويل

أجارتنا إنّ المتون قريب ... من التلس كلّ المخطئين تصيب
كأني وقد أدنوا إليّ شفارهم ... من البزل أحوى الصفحتين نكيب
أجارتنا لا تسأليني فإني ... مقيمٌ لعمري ما أقام عسيب
قال أبو عبيدة: وعسيب: جبل معروف، فقبره هناك معروف المكان.
قوله من البزل: يعني: كأني بعير قرم من الإبل قد كوي لداء به، فيقول: أحللت ذاك الخل لقطع ذلك اللحم
وكيه، وجعله أحوى الصفحتين، وهما الجنبان، لتتابع الهناء عليه ضناً به والنكيب والأنكب واحد، وهو
الحامل، وذلك لما يوصف به الفحل أنه يحمل نشاطاً وتكبراً.

وكانت الخنساء تقول الأبيات اليسيرة، فلما أصيبت بأخيها صخر جدت وأجادت، وجمعت نفسها
وشهرت. فمما يستحسن من شعرها قولها في قصيدة أولها: البسيط
يا عين جودي بدمعٍ منك تغزار ... وأبكي لصخرٍ بدمعٍ منك ملرار
وقولها

إني أرتقت فبت الليل ساهرة ... كأنما كحلت عيني بعوار
والعوار والعائر سواء، وهو المستأخذ، أشد الرمذ وأغلبه، كما قال القائل: البسيط
بأعين لم يصبها عائر الرمذ
وكما قال الراعي: البسيط
غضاً كما نظر المستأخذ الرمذ
أرعى التجوم وما كلفت رعيها ... وتارة أتغشى فضل أطمار
إني سمعت فلم أهبج به خيراً ... مخبراً جاء ينثو جمع أخبار
قالوا: ابن أمك أمسى في الضريح وقد ... شدوا عليه بأعوادٍ وأحجار
أذهب فلا يبعدنك الله من رجلٍ ... تراك ضيمٍ وطلابٍ بأوتار
قد كنت تحمل قلباً غير مؤتشبٍ ... مركباً في نصابٍ غير خوار
الحوار: الضعيف.

وحدثني رجل من بني هاشم عن سعيد بن سلم الباهلي. قال: كنت مع أمير المؤمنين هارون الرشيد في سفر،
فسأل عما حمل معه من الثلج، فاستقل ما ذكر له فاغتاط واحمد، فتركته حتى سكن غربه ثم قلت: يا أمير
المؤمنين، إني أقول كلاماً والله ما أريد به ملقاً ولا تنبيهاً على نفسي لأني فطنت إلى ما لم يفطن إليه من
سواي، وما أقوله إلا بالنصيحة المحضة. فقال: هات. فقلت: يا أمير المؤمنين، إنك قسمت الدهر شطرين،
شطراً للحج، وشطراً للغزو؛ والمسافر يرد على ضروب من المياه، وسفرك أكثر من حضرك، فلو أن أمير
المؤمنين عود نفسه الحشونة شيئاً فمتى احتاج إليها لم تنكرها النفس لتلك العادة. قال: فأطرق ثم قال: يا
سعيد، بنصح قلت: ولكننا نلبس العافية ما لبستنا، فإن اضطررنا رجعنا إلى أصل غير حوار.

رجع الشعر

مثل السنان كضوء البدر صورته ... جلد الميرة حرٌّ وابن أحرار
فسوف أبكيك ما ناحت مطوقةً ... وما أضاءت نجوم الليل للساري
ولن أسالم قوماً كنت حرهم ... حتى تعود بياضاً حلقة القار
أبلغ خفافاً وعوفاً غير تقصرة ... عميد قوم نداءً غير أسرار
والحرب قد سعرت حرباً مذكرةً ... شهباء تفري بأنيابٍ وأظفار

شدوا المآزر حتى تستقيد لكم ... وشمروا إنها أيام تشمار
وابكوا فتى الحي لاقتة منيته ... وكل نفس إلى وقتٍ ومقدار
كأنهم يوم راموه بجمعهم ... راموا الشكيمة من ذي لبدةٍ ضار
والشكيمة: شدة النفس وصحة العزيمة. والشكيمة: الحديدية المعترضة في اللجام.
حتى تفرجت الآلاف عن رجلٍ ... مجدلٍ خرّ كرهاً غير مختار
تجيش منه فويق الثدي مزبدةً ... بعاندٍ من نجيع الجوف ثوار

لو منكم كان فينا لم ينل أبداً ... حتى تلاقوا أموراً ذات آثار
أعني الذين إليهم كان منزله ... هل تعرفون ذمام الصيف والجار ؟
تعاقب خفاف بن ندبة وعوفاً لأنهما هرباً عنه وهما من المعدودين من الفرسان. وكان خفاف من فرسان
العرب وأدرك الإسلام فأسلم.

لا صلح حتى تكروا الخيل عابسةً ... تعدو وترمي بمهراثٍ وأمهار
فبتغسلوا عنكم عاراً تجللكم ... غسل الجوارى حيصاً عند أطهار
قال: هذا مثل وقالت أيضاً ترثي صحراً: المتقارب
ألا ما لعينك أم ماها ... لقد أخضل الدمع سرباها
فأقسمت آسى على هالكٍ ... وأسأل نائحةً ما لها
أبعد ابن عمرو بن آل الشري ... د حلت به الأرض أثقالها
معنى حلت به الأرض أثقالها: من الحلية: أي زينت به أثقالها، تعني الموتى. قال الله عز وجل: وأخرجت
الأرض أثقالها قالوا: يعني الموتى.

لعمر أبيه لنعم الفتى ... تحشّ به الحرب أجذالها
أي توقد به الحرب أجذالها. والجذل: أصل الشجرة. فضربته مثلاً لشدة الاتقاد، وأنه صاحب ذلك.
حديد السنن ذليق اللسان ... يجاري المقاريض أمثالها
وخيل تكدس مشي الوعو ... ل نازلت بالسيف أبطالها
بمعترك بينهم ضيقٍ ... مجرّ المنية أذيالها
تقابلها فإذا أدبرت ... بللت من الطعن أكفالها
الأكفال: واحدها كفل وهو الردف من الرجل والمرأة.
قهبين القفوس وهون النفوس ... غداة الكريهة أوفى لها
يروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: رب منية سببها طلب الحياة، وحية سببها التعرض
للموت.

ورجاجة فوقها بيضها ... عليها المضاعف زفنا لها
تعني بقولها: زفنا لها أي جننا نمشي إليها هوناً.
ككرفنة الغيث ذات الصبير ... ترمي السحاب ويرمى لها
الكرفنة واحدة الكرافيء وهو تكاثف الغيم واسوداده.
قال: وحدثنا المازني بإسناد آخره رؤبة بن العجاج قال: خرجت مع أبي، نريد الوليد بن عبد الملك، فأهدي
لنا جنب من لحم عليه كرافيء الشحم ووطب من لبن، فطبختنا هذا بهذا، فما زالت ذفرياي تنتحان منه حتى
رجعنا. وإنما شبهه لكثرة الشحم وركوب بعضه على بعض بكرفنة الغيم.

وداهية جرّها جارمٌ ... تبيل الخواصر أحبالها
كفيت ابن عمرو لم تستعن ... ولو كان غيرك أدنى لها

وعيرانة كأتان التّمي ... ل غادرت بالخلّ أوصالها
قولها: وعيرانة تعني: ناقةٌ تشبه بالحمار الوحشي. وأتان التّميل: صخرة تكون في الحوض معروفة. والشميل:
بقية الماء. فقول هي صلبة كصلاصة هذه الصخرة. والخل: الطريق في الرمل. فتقول: غادرتما هناك لشدة
السير.

إلى ملكٍ لا إلى سوقٍ ... وذلك ما كان إكلالها
ومحصنة من بنات الملو ... ك قعقت بالرمح خلخالها
وقافية مثل حدّ السنّا ... ن تبقى ويهلك من قالها
نظقت ابن عمرو فسهلتها ... ولم ينطق الناس أمثالها
فإن تك مرّة أودت به ... فقد كان يكتر تقناتها
فرا ل الكواكب من فقهه ... وجلّت الشّمس أجلاها
همت بنفسي كلّ المهموم ... فأولى لنفسي أولى لها
لأحمل نفسي على آله ... فإما عليها وإما لها
ومما يؤثر ويقتفى من قولها: البسيط

أقدى بعينك أم بالعين عوّار ... أم أوحشت أن خلت من أهلها الدّار
وينشد بعضهم: قدنى بعينك، وهو أقوم للبيت، وزيادة الألف في قولها: أقدى؟ أبلغ. ولا ضرورة فيه ولكنه
مخزوم.

تبكي لصخرٍ هي العبرى وقد ثكلت ... ودونه من جديد التّرب أستار
لا بدّ من مبيتة في صرفها غير ... والدّهر في صرفه حولّ وأطوار
يا صخر ورّاد ماء قد تناذره ... أهل المياه فما في ورده عار
وهذا بيت يسأل عنه كيف تناذره أهل المياه ولا عار فيه. فالعنى أنّها تعني الموت.
مشي السنّتي إلى هيجاء معضلة ... له سلاحان: أنيابٌ وأظفار
يقال لكل جريء الصدر: سيندى وسينتى بالثناء والبدال، والأغلب عليه النمر.
عبل الدّراعين قد تخشى بوادره ... عند الوقية للأقران هصار
فما عجولٌ على بوّ تطيف به ... لها حنينان: إعلانٌ وإسرار
ترتع ما غفلت حتّى إذا ادّكرت ... فإنما هي إقبالٌ وإدبار
يوماً بأوجد منّي حين فارقي ... صخرٌ وللدّهر إحلاءٌ وإمرار
وإنّ صخرًا لوالينا وسيّدنا ... وإنّ صخرًا إذا نشتو لنحّار
وإنّ صخرًا لتأتم الهداة به ... كأنّه علمٌ في رأسه نار

العلم ها هنا: الجبل، وكذلك قال المفسرون في قول الله جل وعز: وله الجواري المنشآت في البحر
كالأعلام. ومنه قول جرير: الرجز

إذا قطعن علماً بدا علم

طلق اليبدين بفعل الخير ذو فخر ... ضخم الدسيعة في اللاواء صبار

مثل الرديني لم تنفذ شيبته ... كأن تحت طي اليرد أسوار

ليبكه مقترأ فنى حلوبته ... دهرٌ وحالفه بؤسٌ وإقتار

ورفقةً حار هاديهم بمهلكة ... كأن ظلمتها في الطخية القار

لم تره جارةً يمشي بساحتها ... لريبةٍ حين يخلي بيته الجار

فقولها: كأنه علم في رأسه نار أحد ما قدمت به.

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أما رضيت أن تجعليه علماً حتى جعلت في رأسه ناراً. ذاك رسول

صلى الله عليه وسلم، يريد: البيان والدلالة.

وقال عمر في قول الخطيئة: الطويل

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره ... تجد خير نار عندها خير موقد

كذب الخطيئة. تلك نار موسى صلى الله عليه وسلم. وهذا من نواذر الشعر.

وقالت أيضاً: الوافر

كأن العين خالطها قداها ... بعوارٍ فما تقضي كراها

على صخرٍ وأي فتي كصخرٍ ... إذا ما التاب لم ترام طلاها

قولها إذا ما التاب لم ترام طلاها: الطلا: الصغير من أولاد الوحش والنعم، ويقال ذلك في الآدميين، وإنما

تريد زمن الصر والبرد.

حلفت برب صهبٍ معملاتٍ ... إلى البيت المحرم منتهاها

لئن جرعت بنو عمرو عليه ... لقد رزئت بنو عمرو فتاها

فتي الفتيان ما يعلى مداه ... ولا يكدي إذا بلغت كداها

يقال: أكدي، إذا أقل، وأصل ذلك في البئر تحفر، فإذا بلغ منها إلى حجر أو كدن استصعب على الحافر.

وقيل: قد بلغت كديتها وجمعها كدى فلا يخرج من التراب إلا اليسير، فلذلك قيل للذي يعطي قليلاً:

أكدي. قال الله جل وعز: وأعطى قليلاً وأكدي. فقالت: إذا بلغ الجهد من الناس لم يكن عطاؤه قليلاً ولا

نزرأ.

له كفٌ يشيد بها وكفٌ ... تحلب ما يجف ثرى نداها

فمن للضيف إن هبت شمالٌ ... مزعزةٌ يجاوبها صباها

وأجأ بردها الأشوال حدباً ... إلى الحجرات بارزةً كلاها

يقول: لا شحم عليها.

هنالك لو نزلت بآل صخرٍ ... قرى الأضياف شحماً من ذراها

هذا على مخاطبتين. قالت: هنالك لو نزلت للذي تخاطبه ثم خبرته فقالت: قرى الأضياف فتأويل هذا على

ضربين، أحدهما على حذف المفعول كأنها قالت: لو نزلت به لرأيت يقرى الأضياف، ويكون على أنها جعلته

وغيره على مخاطبتين، تتحول من إحداهما إلى الأخرى كقول الله عز وجل: حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة، وكقول عنتره: الكامل

شطت مزار العاشقين فأصبحت ... عسراً عليّ طلابك ابنة محرم
ومثل هذا كثير جداً.

أمطعمكم وحاملكم تركتم ... لدى غبراء منهلم رجاءها
ترى الشَّمط الجحاجح من سليم ... تيل ذرى مدامعها لهاها
ليبك الخير صخرًا من معدّ ... ذوو أحلامها وذوو نَمَها
وخيلٍ قد لفقت بجمع خيلٍ ... فدارت بين كبشيتها رحاها
محافظةً ومحميةً إذا ما ... نبا بالقوم من جزعٍ لظاها
وقالت: الوافر

ألا يا عين فاهملي بغزر ... وفيضي عبرةً من غير نزر
ولا تعزي عزاءً بعد صخر ... فقد غلب العزاء وعيل صبري
لمرزيةً كأن الجوف منها ... بعيد التوم يسعر حرّ جمر
على صخرٍ وأيّ فتى كصخر ... لعانٍ عائلٍ علق بوتر
وللأضياف إن طرقوا هدواً ... وللكلّ المبرّ وكلّ سفر
إذا نزلت بهم سنةً جهاداً ... أتى بالترّ لم يكسع بغير

كان من شأنهم، إذا أجذبت السنة أو خافوا الجذب، أن تنضح الضروع بالماء البارد ليبقى اللبن فيها ادخاراً
واستعداداً وبخلاً من بعضهم. فلذلك يقول الحارث ابن حلزة: السريع
لا تكسع الشول بأغبارها ... إنك لا تدري من الناتج
الغبر: بقية اللبن، وغابر كل شيء: باقيه. ويقول: لا تبخل فتحبس لبنك، فإنك لا تدري لمن يكون ذلك
اللبن، ألك أم لوارثك أم لمغير عليك.

واصيب لأضيافك ألبانها ... فإن شرّ اللبن الواج
وكل مردود مكسوع.

هنالك كان غيث حياً وعزاً ... لمن أرسى إليه غير وعر
وأحيا من محبّة كعاب ... وأشجع من أبي شبل هزبر
هريت الشندق رنبال إذا ما ... غدا لم تنه غدوته بزجر
تدين الحادرات له إذا ما ... سمعن زئيره في كل فجر
غياث إن تأوّه غريباً ... لعسر في الحوادث أو ليسر
إذا ما الوفد حلّ إلى ذراه ... تلقاهم بوجه غير بسر
تفرّج بالتدى الأبواب عنه ... ولا يكتنّ دونهم بستر

دهنتي الحادثات به فأضحيت ... عليّ همومه تغدو وتسري
وقالت أيضاً: البسيط

يا عين مالك لا تدرين تسكابا ... إذ راب دهرٌ وكان الدهر ريباً
فابكي أخاك لأيتامٍ وأرملةٍ ... وابكي أخاك إذا جاورت أجناباً
وابكي أخاك خيلٍ كالمقطا قطفٍ ... فقدن لما ثوى سبياً وإهاباً
يعدو به سايحٌ فهدّ مراكله ... مجلبٌ من سواد الليل جلاباً
حتى يصبح قوماً في ديارهم ... فيسلبوا دون صفّ الموت أسلاباً
هو القتي الكامل الحامي حقيقته ... مأوى الغريب إذا ما جاء منتاباً
يهدى الرّعيّل إذا جار السّبيّل بهم ... فهدّ التليل لزرق السّم ركباً
انجد خلته والجود علته ... والصّدق حوزته إن قرنه هاباً
ركّاب مفضعةٍ، حمال مضلعةٍ ... إن خاف معضلةً سنّى لها باباً
شهاد أنديّة، هباط أوديّةٍ ... حمال ألويةٍ للوتر طلاباً

سمّ العداة وفكّك العناة إذا ... كان الوغى لم يكن للموت هيّاباً
قال أبو العباس: والجود علته أي أن الناس إذا سئلوا اعتلوا في الجود بالعلل، فجعلته هو علته الجود، كما
قال الله جل وعز: النار وعدها الله الذين كفروا معنا: الوعد النار.
وقالت أيضاً ترثي أخاها معاوية بن عمرو: الوافر

هريقي من دموعك واستفيقي ... وصبراً إن أطقت ولن تطيقي
وقولي إن خير بني سليمٍ ... وفارسهم بصحراء العقبيق
ألا هل ترجعن لنا اللّيلي ... وآيامٌ لنا بلوى الشّقيق
وإذ فينا معاوية بن عمرو ... على أدماء كالجمل الفنيق
فبكيه فقد ولّى حميداً ... أصيل الرّأي محمود الصّديق

فلا والله لا تسلاك نفسي ... لفاحشة أتيت ولا عقوق
ولكنّي رأيت الصّبر خيراً ... من التّعلين والرّأس الحليق
وكانوا في الجاهلية إذا بالغوا في الجزع حلق النساء رؤوسهن، ولطمن خدودهن بالنعال.

وقال عبد مناف بن ربيع الهذلي يذكر أخته: البسيط
إذا تأوّب نوحٌ قامتا معه ... ضرباً أليماً بسبت يلعب الجلد
ألا يا لهف نفسي بعد عيشٍ ... تولّى بعهده عيشٌ أنيق
وإذ يتحاكم الحكّام فينا ... إلى أبياتنا وذوو الحقوق
وإذ فينا فوارس كلّ هيّجٍ ... إذا فزعوا وفتيان الخروق

الخروق جمع خرق، وهو المتسع من الأرض، وذلك قول رؤبة ابن العجاج: الرجز

وقاتم الأعماق حاوي المخترق

أي المتسع. وقال بعض المفسرين في قول الله جل وعز: إنك لن تحرق الأرض قال: تبلغ قطريها. والقول الفاشي إنما هو تنقيبها بأجمعها إلى حيث بلغت.

إذا ما الحرب صلصل ناجذاها ... وفاجأها الكمأة لدى المضيق

وكان من خبر مقتل معاوية بن عمرو، وكان أبا خنساء لأبيها وأمها، وكان صخرًا أخاها لأبيها وكانت بصخر أمس لفضله على معاوية، ولم يكن معاوية متخلفاً بل كان لاحقاً في السؤدد بأخيه، أو دويبه شيئاً. قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: حدثني أبو بلال وربما قال: أبو بلال سهم بن أبي بن العباس بن مرداس قال: غزا معاوية بن عمرو بن الشريد، أخو خنساء، مرة وفرارة، ومعه خفاف بن ندبة فاعتوره هاشم ودريد المريان، ابنا حرملة، فاستطرد له أحدهما ثم وقف، وشد عليه الآخر فقتله. فلما تنادوا: قتل معاوية! قال خفاف: قتلني الله إن رمت حتى أثار به فشد على مالك بن حمار، سيد بني شمع بن فرارة فقتله وقال:

الطويل

فإن تك خيلي قد أصيب صميمها ... فعمداً على عيني تيممت مالكا
وقفت له علوى وقد خام صحبتي ... لأبني مجدداً أو لأثار هالكا
علوى: اسم فرسه.

أقول له والرّمح ياطر متنه ... تأمل خفافاً إني أنا ذالكا

فلما بلغ صخرًا قتل أخيه، أتى مرة في الشهر الحرام فوقف على ابني حرملة، فإذا أحدهما به طعنة في عضده، فقال: أيكما قتل معاوية؟ فسكتا، فقال الصحيح للجريح: مالك لا تجيبه؟ فقال: وقفت له فطعني هذه الطعنة، وشد عليه أخي فقتله، فأينا قتلت فقد أدركت بئارك، أما إنا لم نسلب أحاك. قال: فما فعلت فرسه السماء؟ قال: ها هي تيك، ردوها عليه، فردوها. فلما أتى صخر قومه قالوا: اهجهم. قال: ما بيننا أجل من القذع، لو لم أكفف عن هجائهم إلا رغبةً بنفسي عن الحنا لكففت. وقال: الطويل

وعاذلةً هبت لبيل تلومني ... ألا لا تلوميني كفى اللوم ما بيا

تقول: ألا تهجو فوارس هاشم ... ومالي إذ أهجوهم ثم ماليا

أبي الشتم أتى قد أصابوا كريمي ... وأن ليس إهداء الحنا من شماليا

إذا ذكر الإخوان رقرقت عبرة ... وحييت رمساً عند لية ثاويا

إذا ما امرؤ أهدى لميت تحيةً ... فعياك ربّ الناس عني معاويا

وهون وجدي أنني لم أقل له ... كذبت، ولم أبخل عليه بماليا

ثم زاد عليها بيتاً بعدما أوقع بهم فقال:

وذي إخوةٍ قطعت أرحام بينهم ... كما تركوني واحداً لا أخاليا

ثم غزاهم في العام المقبل فلما دنا وعلا السماء قال: إني أخاف إذا طلعت أن يعرفوا طلعة السماء، فحمم غرقماً، فلما أشرف على أداني القوم قالت امرأة لابنها: هذه، والله، السماء. فظفر إليها فقال: السماء غراء، وهذه بهميم، فلم يشعروا إلا والخيل دواتس، وقتل صخر دريداً وأصابوا في مرة، فقال: الكامل

ولقد قتلنكم ثناء وموحداً ... وتركت مرّة مثل أمس المدبر
ولقد دفعت إلى دريد طعنةً ... نجلاء تزغل مثل غطّ المنخر
قوله: تزغل أي تفيض بسجال الدم. قال ابن أحرر يعني القطاة إذا مجت الماء في حوصلة فرخها: السريع
فأزغلت في جبهه زغلةً ... لم تحطيء الجيد ولم تشفتري
والإيزاغ مثل الإزغال.

وأما هاشم بن حرملة فإنه خرج غازياً، فلما كان في بلاد جشم بن بكر ابن هوازن، نزل فأخذ صفنته ويقال
صفنه وخلا حاجته بين الشجر ورأى غفلته قيس ابن الأسوار الجشمي فتبعه وقال: هذا قاتل معاوية، لا
وألت إن وأل. فلما قعد حاجته تستر له بين الشجر حتى إذا كان خلفه أرسل عليه معبلةً فخلق قحقحه،
وهو العصص الذي عليه عجب الذنب، فقالت الخنساء: الوافر

فدىً للفارس الجشمي نفسي ... وأفديه بمن لي من حميم
فذاك الحيّ حيّ بني سليمٍ ... بظاعنهم وبالأنس المقيم
كما من هاشمٍ أقررت عيني ... وكانت لا تنام ولا تنيم
وكان هاشم من أشد العرب، وله يقال: مشطور الرجز
أحيا أباه هاشم بن حرملة ... يوم الملوك حوله مغربله
يقتل ذا الذنب ومن لا ذنب له

فقالت الخنساء تربيته وأخاها صخراً: الوافر

بكت عيني وعاودت السّهودا ... وبّت اللّيل جانحةً عميدا
لذكرى معشرٍ ولّوا وخلّوا ... علينا من خلافتهم فقودا
فكم من فارسٍ لك أمّ عمرو ... يحوط سنانه الأّنس الحريدا
الحريد: البعيد

كصخرٍ أو معاوية بن عمرو ... إذا كانت وجوه القوم سودا
يردّ الخيل داميةً كلاها ... جديرٌ يوم هيجا أن يصيدا
يكبّون العشار لمن أتاهم ... إذا لم تصمت الأمّ الوليدا
فتابع بينهم وردّ فأضحوا ... مع الهلاك قد لحقوا ثمودا
وقالت أيضاً تربيته صخراً: الطويل

أهفي على صخرٍ لكلّ عظيمةٍ ... إذا الخيل من طول القياد اقشعرت
إذا الخيل شكّت في السّريح وطابقت ... طباق الكلاب في المهراش وصرت
يقال: شكّ الفرس والبعير وغير ذلك من الظهر إذا ظلعت ظلعاً خفيفاً كما قال ذو الرمة: البسيط
كأنه مستبان الشك أو جب

وإنما هذا من الخيلاء في هذا الموضع. وطابقت أي وقعت أرجلها مكان أيديها وصرت آذانها.

وخيل تنادى لا هوادة بينها ... مررت بها دون السّوام ومرّت
 كأنّ مدلاً من أسود تباله ... يكون لها حيث أستدارت وكرت
 شددت عصاب الحرب إذ هي مانعٌ ... فألقت برجليها مرياً ودرّت
 وكان أبو حسّان صخرٌ يصدّها ... ويرغثها بالرّمح حتّى أقرّت
 وكانت إذا ما حالبٌ يستدرّها ... تقته يابزاعٍ دماً واقمطرت
 اقمطرت: معناه اشتدت وقالت أيضاً ترثيه: الطويل
 أمن حدث الأيام عينك قمل ... تبكي على صخرٍ وفي الدهر مذهل
 ألا من لعينٍ لا تحفّ دموعها ... إذا قيل تفنى تستهلّ فتحفل
 على ماجدٍ ضخم الدسيعة سيّدٍ ... له سورةٌ في قومه ما تحول
 قال: السورة ها هنا: الدرجة من الملك والقدرة العالية، من ذلك قول النابغة: الطويل
 ألم تر أنّ الله أعطاك سورةً ... ترى كلّ ملكٍ دونها يتذبذب
 ويقول الرجل: سرت، فمعناه: ارتفعت وعلوت. قال العجاج: الرجز
 ياربّ ذي سراقٍ محجور ... سرت إليه من أعالي السّور
 وقال الأخطل يصفٍ خمراً خرجت حين فتح ميزها: البسيط
 لما أتوها بمصباحٍ ومبزهّم ... سارت إليه سؤور الأجل الصّاري
 فما بلغت كفّ امرئٍ متناول ... من المجد إلا حيث ما نلت أطول
 وما بلغ المهدون في القول مدحةً ... وإن كثرت إلا الذي فيك أفضل
 وما الغيث في جعد الثرى دمت الرّبي ... تبعق فيه الوابل المهلّل
 بأجزل سيباً من نذاك ونعمةً ... تعمّ بها بل سيب كَهكّ أجزل
 وجارك محفوظٌ منيعٌ بنجوةٍ ... من الذلّ لا يؤذى ولا يتذلّل
 من القوم مغشيّ الرّواق كأنه ... إذا خاف صباحاً خادراً متبسّل
 شرنبت أطراف البنان ضبارمٌ ... له في عرين الغاب عرسٌ وأشبّل
 هزيرٌ هريت الشّدق ربّال غابةٍ ... مخوف اللّقاء كاليء العين أنجل
 أخو الجود معروفٌ له الجود والتدى ... حليفان ما قامت تعارٌ ويذبل

باب وصايا

قال أبو العباس: ونذكر وصايا يؤثر بعضها عن أهل الدين وبعضها عن أهل الآداب والطبائع المحمودة. وقد
 تجتري إلى أنفسها غير ذلك من سائر الوصايا. ثم نعود إن شاء الله تعالى إلى التعازي بالمشثور والموصوف. وبالله
 الحول والقوة، ونشوبه بشيء من الاعتبار:

وصية أبي بكر الصديق

رحمه الله

قال فطر بن خليفة عن عبد الرحمن بن سابط قال: أوصى أبو بكر الصديق عمر بن الخطاب رحمه الله حين استخلفه فقال: إني مستخلفك، وأوصيك بتقوى الله يا عمر، إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل. واعلم أنه لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة وأنه إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق. ويحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً. وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا. ويحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً. إن الله جل ذكره ذكر أهل الجنة بحسن أعمالهم، وتجاوز عن سيئاتهم، فإذا ذكركم فقل إني لأخاف ألا أكون من هؤلاء. وذكر أهل النار بسوء أعمالهم، فإذا ذكركم فقل إني لأرجو ألا أكون من هؤلاء. وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً لا يتمنى على الله غير الحق، ولا يلقى بيده إلى التهلكة. فإن حفظت وصيتي فلا يكونن غائب أحب إليك من الموت ولست بمعجزه.

وصية عمر بن الخطاب

رحمه الله

قال فطر بن خليفة وغيره: دعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند موته عبد الله بن عمر فقال: أي بني: إذا قام الخليفة بعدي فائته فقل إن عمر يقرأ عليك السلام ويوصيك بتقوى الله لا شريك له، ويوصيك بالمهاجرين الأولين خيراً: أن تعرف لهم سابقتهم. ويوصيك بالأنصار خيراً: أن تقبل من محسنهم وتتجاوز عن مسيئتهم. ويوصيك بأهل الأمصار خيراً، فإنهم غيظ العدو وجباة الفيء، لا تحمل فيهم إلا عن فضل منهم. ويوصيك بأهل البادية خيراً، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام: أن تأخذ من حواشي أموالم فترد على فقرائهم. ويوصيك بأهل الذمة خيراً: أن تقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا فوق طاقتهم.

وصية علي بن أبي طالب

رحمه الله

قال لوط بن يحيى: حدثني عبد الرحمن بن جندب عن أبيه قال: دخلت على علي بن أبي طالب أسأل عنه حين ضربه ابن ملجم لعنه الله. فقامت ولم أجلس لمكان ابنة له دخلت عليه وهي مستتره، فدعا الحسن والحسين رحمهما الله فقال: إني أوصيكما بتقوى الله، ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تبكيا على شيء منها زوي عنكما. قولوا الحق، وارحما اليتيم، وأعينا الضالع، واصنعا للآخرة، وكونا للظالم خصماً، وللمظلوم عوناً، ولا تأخذ كما في الله لومة لائم.

ثم نظر إلى ابن الحنفية فقال له: فهمت ما أوصيت به أخويك؟ قال: نعم. قال: أوصيك بمثله، وأوصيك بتوقير أخويك، وتزيين أمرهما، ولا تقطع أمراً دونهما ثم قال: وأوصيكما به فإنه شقيقكما، وابن أبيكما، وقد علمتما أن أباه كان يحبه فأحياه.

وصية معاوية بن أبي سفيان

رحمه الله

قال عيسى بن يزيد بن بكر بن داب: لما ثقل معاوية، بعث إلى يزيد وهو في ضياعه، فأتاه غلام له يقال له عجلان، فأخبره بثقل أبيه، فأقبل وقد قال في ذلك شعراً: البسيط
جاء البريد بقرطاسٍ يحبّ به ... فأوجس القلب من قرطاسه جزعا
قلنا: لك الويل ماذا في صحيفتكم ... قال: الخليفة أمسى مثبّتا وجعا
فمادت الأرض أو كادت تميد بنا ... كأنّ أغبر من أركانها انصدعا
ثمّت ملنا إلى عيسٍ مزمّمةٍ ... نغشى الفجاج بما لا نأتلي سرعا
لسنا نبالي إذا بلّغن أرحلنا ... ما مات منهنّ بالبيداء أو ظلعا
حتّى دفعنا لرأس التّاس كلّهم ... هدياً، وخيرهم فعلاً ومصطنعا
من لم تزل نفسه توفي على شرفٍ ... توشك مقادير تلك التّفس أن تقعا
لما انتهينا وباب الدّار منصفقٌ ... لصوت رملة ريع القلب فاقلعا

قال: فلما دخل على معاوية خلا به وأخرج عنه أهل بيته وقال: يا بني قد جاء أمر الله، وهذا أوان هلاكك، ما أنت صانع بهذه الأمة بعدي؟ فمن أجلك آثرت الدنيا على الآخرة، وحملت الوزر على ظهري لتعلو بني أبيك. قال يزيد: آخذهم بكتاب الله وسنة رسوله وأقتلهم عليه. قال: أولاً تسير بسيرة أبي بكر الذي قاتل أهل الردة ومضى والأمة عنه راضون؟ قال: لا، إلا بكتاب الله وسنة نبيه، آخذهم به وأقتلهم عليه. قال: أولاً تسير بسيرة عمر الذي مصر الأمصار وجند الأجناد، وفرض الأعطية، وجبى الفياء وقاتل العدو، ومضى والأمة عنه راضون؟ قال: لا، إلا بكتاب الله وسنة نبيه عليه السلام، آخذهم به وأقتلهم عليه. قال: أولاً تسير بسيرة عمك عثمان بن عفان الذي أكل في حياته، وورث في مماته، واحتمل الوزر على ظهره؟ قال: لا، إلا بكتاب الله وسنة نبيه، آخذهم به وأقتلهم عليه. قال: يا يزيد، اقطع منك الرجاء وأظنك ستخالف هؤلاء جميعاً فتقتل خيار قومك وتغزو حرم ربك بأشابات الناس فتنطمعهم لحومهم بغير الحق فتدركك ميتة فجاءة، فلا دنيا أصبت، ولا آخرة أدركت. يا يزيد أما إذا لم تصب الرشد فإني قد وطأت لك الأمور، وذللت لك أهل العز، وأخضعت لك رقاب العرب، وكفيتك الرحلة والترحال، وجمعت لك ما لم يجمعه واحد، وإني لست أخاف أن ينازعك في هذا الأمر إلا ثلاثة نفر: الحسين ابن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير. فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة وتحلى من الدنيا وشغل

نفسه بالقرآن. وما أظنه يقاتل عليها إلا أن تأتيه عفواً. وأما الذي يجثم جنوم الأسد ويروغ روغان العلب، فإن أمكنته الفرصة وثب فابن الزبير، فإن هو فعل فاستمكنت منه ققطعه إرباً إرباً إلا أن يلتمس منك صلحاً، فإن فعل فاقبل منه واحقن دماء قومه تقبل قلوبكم إليك. وأما الحسين بن علي فإن له رحماً وحقاً وولادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أظنه أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه عليك، فإن قدرت عليه فاصفح عنه. فإني لو كنت صاحبه صفحت و عفوت عنه قم عني. وصلى عليه عمرو بن العاص.

وصية أبي عبيدة بن الجراح

تحدث لوط بن يحيى أبو مخنف قال: لما طعن أبو عبيدة بن الجراح بالأردن وبها قبره دعا من حضره من المسلمين فقال: إني أوصيكم بوصية إن قبلتموها لم تزالوا بخير: أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، وصوموا شهر رمضان، وتصدقوا وحجوا واعتمروا، وتواصلوا، وانصحوا لأمرائكم ولا تغشوهم، ولا تلهكم الدنيا، فإن امراً لو عمر ألف حول ما كان له بد من أن يصير إلى مثل مصرعي هذا الذي ترون. إن الله كتب الموت على بني آدم، فهم ميتون، وأكيسهم أطوعهم لربه، وأعملهم ليوم مياعده. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. يا معاذ بن جبل، صل بالناس.

ومات رحمه الله، فقام معاذ بن جبل إلى الناس فقال: يا أيها الناس، توبوا إلى الله من ذنوبكم توبة نصوحاً، فإن عبداً لا يلقي الله تائباً من ذنبه إلا كان حقاً على الله أن يغفر له. من كان عليه دين فليقضه، فإن العبد مرتن بدينه، ومن أصبح منكم مهاجراً أخاه فليلقه فليصلحه، ولا ينبغي أن يهجر أخاه أكثر من ثلاث، والذنب في ذلك عظيم. إنكم، أيها المسلمون، قد فجعتم برجل ما أزعم أي رأيت عبداً أبر صدراً، ولا أبعد من الغائلة وأشد حباً للعافية، ولا أنصح للعامة منه. فترحموا عليه رحمه الله، ثم احضروا للصلاة عليه. قال: ولما احتضر معاذ بن جبل قال لوط بن يحيى: حدثنا الصعب ابن زهير عن شهر بن حوشب قال: أتى آت معاذ بن جبل عند موته فقال: يا معاذ، أوصني بما ينفعني قبل أن تفارقني، فلعلي أحتاج إلى سؤال الناس بعدك، فلا أجد فيهم مثلك. قال معاذ: بلى، صلحاء الناس بحمد الله كثير، ولن يضيع الله أهل هذا الدين. خذ عني ما أمرك به: كن من الصائمين بالنهار، والمستغفرين بالأسحار، والذاكرين الله على كل حال، ولا تشرب الخمر، ولا تعقق والدريك، ولا تأكل مال اليتيم، ولا تفر من الزحف، ولا تأكل الربا، ولا تدع الصلاة المكتوبة، وصل رحمك لله، وكن بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً. وأنا لك بالجنة زعيم. ثم مات رحمه الله. فصلى عليه عمرو بن العاص.

وصية عبد الملك بن مروان

رحمه الله

وأوصى عبد الملك بن مروان حين حضرته الوفاة فقال لبنيه: أوصيكم بقوى الله، فإنها عصمة باقية وجنة واقية. والتقوى خير زاد، وأفضل في المعاد، وأحصن كهف، وأزين حلية. ليعطف الكبير منكم على الصغير

وليعرف الصغير منكم حق الكبير مع سلامة الصدور والأخذ بجميل الأمور. فإنكم إذا فعلتم ذلك كنتم للعرز خلقاء، وهابتكم الأعداء. إياكم والتباغي والتحاسد فإن بهما هلك الملوك الماضون، وذوو العز المتكبرون. انظروا يا بني، مسلمة بن عبد الملك فأصدروا عن رأيه، فإنه نابكم الذي تفترون عنه، ومجنكم الذي تستجنون به. وأكرموا الحجاج، فإنه الذي وطأ لكم المنابر، وكفاكم قحم تلك القناطر. كونوا أولاداً أبراراً، وفي الحرب أحراراً، وللمعروف مناراً، واحلولوا في مرارة، ولينوا في شدة. ثم رفع رأسه إلى الوليد فقال: لا ألفتك يا وليد، إذا وضعتني في حفرتي تعصر عينيك كما تفعل الأمة، بل شمر واترر، والبس جلد نمر، وادع الناس إلى البيعة، فمن قال برأسه هكذا فقل بالسيف هكذا. أوصيك بأخيك عبد الله بن عبد الملك وبعمر بن عبد العزيز خيراً. لا تعزلهما ولا تستبدل بهما. وأوصيك ببن عمنا هذا خيراً يعني علي بن عبد الله بن العباس. فأما الحجاج فلست تستغني عنه.

ثم أرسل إلى خالد وعبد الله، ابني يزيد بن معاوية. فلما جلسا قال: ما تقولان: أأقبلكما بيعة الوليد؟ قالوا: معاذ الله يا أمير المؤمنين. قال: لو قلتما غير ذلك لقتلتكما على حالي هذه. قوما. فقاما فخرجا. ثم دعا بقداح بعدة ولده فأمر بما فجمعت ثم دفعها إلى الوليد فقال: اكسرها. فلم يقدر على ذلك. ثم دفعت إلى آخر، ثم آخر، حتى استقراهم جميعاً، فأعياهم كسرها، فأمر بما ففرقت، ثم دفع إلى كل واحد منهم قدحاً وأمره بكسره ففعل، فقال: هكذا أنتم بعدي، إن اجتمعتم لم يكسر أحد، وإن تفرقتم كسرتم. وقال:

احفظوا عني هذه الأبيات: الكامل

انفوا الضغائن عنكم وعليكم ... عند المغيب وفي الحضور الشهد
بصلاح ذات البين طول بقائكم ... إن مد في عمري وإن لم يمد
فلمثل ريب الدهر ألف بينكم ... بتواصل وتراحم وتودد
حتى تلين قلوبكم وجلودكم ... لمسود منكم وغير مسود
إن القداح إذا اجتمعن فرامها ... بالكسر ذو حنق وكسر أيد
عزت فلم تكسر وإن هي بدت ... فالوهن والتكسير للمتبدد

فلما توفي سجاه الوليد، ثم صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: لم أر مثلها مصيبة ولا مثلها نعمة. فقد الخليفة، فإننا لله وإنا إليه راجعون، على عظم المصيبة. والحمد لله رب العالمين، على عظيم النعمة. ثم دعا الناس إلى بيعة، فبايع الناس ولم يتخلف أحد. فسمع أحد ولد عبد الملك يبكي ويقول: مات، والله، أمير المؤمنين. فقال: ويلك لا تقل هكذا، ولكن قل كما قال أخو بني أسيد

أوس بن حجر: الطويل

إذا مقرر من ذرا حد نابه ... تخمط فينا ناب آخر مقرر
وأوصى أبو قيس بن صرمة الأنصاري ولده عند موته فقال: الخفيف
يا بني، الأرحام لا تقطعوها ... وصلوها قصيرة من طوال
واقفوا لله في ضعاف اليتامى ... ربما يستحل غير الحلال
اعلموا أن لليتيم ولياً ... عالماً يهتدي بغير السؤال

يا بني، الأيام لا تأمنوها ... واحذروا مكرها وكرّ الليالي
واعلموا أنّ مرها لنفاد ال ... خلق ما كان من جديد وبال
واجمعوا أمركم على البرّ والتقى ... وى وترك الحنا وأخذ الحلال

وأبانا أبو عبد الرحمن قال: أبانا أبو يعقوب الثقفي عن عبد الملك بن عمير اللخمي قال: جاء أبو جهم بن
حذيفة العدوي، وهو يومئذ ابن مئة سنة، إلى مجلس لقريش، فأوسعوا له عن صدر المجلس وقائل يقول: بل
كان عروة بن الزبير مكان أبي جهم فقال. يا بني أخي، أنتم خير لكبيركم من مهرة لكبيرهم. قالوا: وما
شأن مهرة وكبيرهم؟ قال: كان الرجل منهم إذا كبر وضعف أتاه ابنه أو وليه فعقله بعقل ثم قال: قم. فإن
استتم قائماً وإلا حمله إلى محبس لهم يجرى على أحدهم فيه رزقه حتى يموت. قال: فجاء شاب منهم إلى أبيه
ففعل ذلك، فلم يستتم قائماً، فحمله فقال: أي بني إلى أين؟ قال: إلى سنة آباتك، فقال: أي بني لا تفعل،
فوالله لقد كنت أوعدك فلا أحقك، وأما شيك فما أبذك وأسقيك الدأداة قال: وكانت العرب تقول: إذا
سقي الغلام اللبن وهو قائم كان أسرع لشبابه فقال الفتى: لا جرم، والله، لا يذهب بك، فاتخذتها مهرة سنة.
وأخبر عبد الرحمن بن إسرائيل عن أشياخه قال: لما حضرت الوفاة سعيد ابن العاصي قال: يا بني، أيكم
يكفل عني ديني؟ قال عمرو بن سعيد: علي دينك يا أبة. كم هو؟ قال: ثمانون ألف دينار. قال: وفيم
استدنتها؟ قال: في كريم سددت خلله، أو لنيم اشترت عرضي منه، ثم قال سعيد: هذه خصلة وبقيت
خصلتان. قال: ما هما يا أبة؟ قال: يا بني لا تزوجن بناتي إلا من الأكفاء ولو بفلق خبز الشعير. قال: أفعل.
قال: يا بني، ذهبت خصلتان وبقيت خصلة. قال: وما هي يا أبة؟ قال: يا بني، إن فقد إخواني وجهي فلا
يفقدوا معروف. قال: أفعل يا أبة. قال: يا بني ما زلت أعرف الكرم في حماليق عينيك وأنت يحرك بك في
مهدك حتى بلغت ما أرى. يا بني، ما شاتم رجلاً مذ كنت رجلاً، ولا زاحمت ركبتي ولا كلفت
من يرتحني أن يسألني فيبذل وجهه ويرشح جبينه رشح السقاء، إذن، والله، فما وصلته. يا بني، أخزى الله
المعروف إذا لم يكن ابتداءً عن غير مسألة. فأما إذا أتاك تكاد ترى دمه في وجهه مخاطراً، لا يلدي أنعطيه أم
تمعه، فوالله لو خرجت له من جميع ما تملكه ما كافأته، ولا الذي بات يتململ على فراشه يعقب بين شفثيه
أيجدي موضعاً لحاجته أم لا، هو أعظم علي منةً مني عليه، إذا قضيتها له وفي هذا الحديث بغير هذا الإسناد،
ولكن عن الزبير بن أبي بكر قال: كانت علته التي مات فيها في ضيعة له بقرب المدينة، فلما اشتدت علته
قال لابنه عمرو: يا بني، قد ترى ما نزل بي، فقال له عمرو: يا أبة، لو حملت إلى المدينة. فقال: يا بني، إن
الحركة تتعبني، وإن أهلي لا يبخلون علي بحملي علي رقابهم ساعة. يا بني، إن ضيعتي هذه متريف وليست
بمال غلة، فإذا أنا مت ففرغت من دفني، فوجه مطيتك نحو معاوية فانعني له، فإنه سيسألك عن ديني
ويتضمنه، فأعلمه أبي قد علمت ذلك وجزه خيراً. ثم قل له: يا أمير المؤمنين، إن له ضيعةً أمر ببيعها للقضاء
دينه، فإنه سيشتريها منك، فاسأله أن يكتب لك بما لها إلى المدينة فاقم بما ديني وعداتي. فلما دفن كانت
مطايا عمرو موقوفةً فعزى عنه، وركب يريد معاوية من ساعته حتى ورد عليه فنعاها له فتنجع وقال: ما
خلف من الدين فهو علي. فقال: يا أمير المؤمنين، قد علم ذاك فوصلتك رحم، ولكنه أمرني ببيع ضيعة له

وهي الفلانية. قال: قد اشتريتها بدينه، وكتب له بالمال إلى المدينة، فجاءه صعلوك من صعاليك قريش بصك على أبيه بعشرين ألف درهم، فيه شهادة مولى له، فقال له: يا هذا، إني أعرف الخط وإني أنكر أن يكون لمثلك مثل هذا المال عليه، فدعا مولاه فقال له: أتعرف هذا؟ فشهد به؛ فقال له: ما سببه؟ فقال: إن أباك في وقت عزله وكان معاوية يوليه المدينة سنة ويولي مروان ابن الحكم سنة رآه وحده وقد ركب لبعض حاجاته، فسار معه حتى بلغها ورجع. فلما انتهى قال له: يا فتى، ألك حاجة؟ فقال: لا، ولكني رأيتك مفرداً فأحببت أن أصل جناحك، فالتمس مالاً يهبه له فلم يحضره فقال لي: عجل علي بصحيفة، فكتب له بهذا ديناً عليه حالاً. فقال عمرو: إذن والله لا يأخذها إلا معجلاً منتقدةً.

قال ابن دأب: لما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة قيل له: يا أمير المؤمنين، اكتب إلى يزيد بن عبد الملك فأوصه بالأمة خيراً فقال: وم أوصيه؟ إني لأعلم أنه من بني مروان. ثم أمر بالكتاب إليه: أما بعد. فاتق، يا يزيد، الصرعة بعد الغفلة فلا تقال العثرة، ولا تقدر على الرجعة. تترك ما تترك لمن لا يحمدك، وتقدم على من لا يعذرک والسلام.

ويروى أن هشام بن عبد الملك لما احتضر نظر إلى حشمه ولحمته يبكون، ففتح عينيه فاطلع في وجوههم ثم قال: جاد عليكم هشام بالدنيا، وجدتم عليه بالبكاء، وترك لكم ما خلف وتركتم عليه ما اكتسب! ما أسوأ حال هشام إن لم يغفر الله له! ولما احتضر معاوية أقبل على ابنة قرظة فقال: بكيني، فقالت: الهزج ألا أبكيه ألا أبكيه... ألا كلّ الفتى فيه

ثم قال لابنتيه: قلباني. فجعلتا تقلباناه لجنب بعد جنب فقال: إنكما لتقلباناه حولاً قلباً إن وفي كبة النار. ثم أنشد: الكامل

لا يبعدنّ ربيعة بن مكلّم... وسقى الغواذي قبره بذنوب

ثم قال ليزيد: إذا أنا قضيت فأحسن غسلني، واجعل في آخره مسكاً وكافوراً، وأحسن الصلاة علي ثم ادفني في لحدي ودعني وربي. فلما بلغ ابن عباس موته قال: الكامل
جبلٌ تصدّع ثمّ مال بجمعه... في البحر لا رتقت عليه الأبحر

وصية الربيع بن خثيم

وروى إسرائيل عن يونس بن أبي إسحاق السبيعي عن سعيد بن مسروق الثوري عن منذر بن يعلى الثوري قال: أوصى الربيع بن خثيم: هذا ما أوصى الربيع بن خثيم: شهد أن لا إله إلا الله وكفى بالله شهيداً، وجازياً لعباده الصالحين ومثيباً. إني رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً، وبالقرآن إماماً. وإني أوصي نفسي ومن أطاعني أن يعبد الله في العابدين، ويحمده في الحامدين، وينصح لجماعة المسلمين.

وصية جندب بن عبد الله البجلي

وروى شعبة بن الحجاج عن يونس بن جبير قال: شيعنا جندب ابن عبد الله، قتلنا له: أوصنا. فقال: أوصيكم بتقوى الله وبالقرآن فإنه نور الليل المظلم، وهدى النهار، فاعلموا واعملوا به على ما كان من جهد وفاقه. فإن عظم بلاء فقدم مالك دون نفسك، فإن جاوز البلاء فقدم مالك ونفسك دون دينك. واعلم أن الخروب من حرب دينه، والمسلوب من سلب دينه، واعلم أنه لا غنى بعد النار، ولا فقر بعد الجنة، وأن النار لا يفك أسيرها، ولا يستغني فقيرها.

ولما حضرت الوفاة عمر بن هبيرة جزع وجعل يقول: لله در البغلات المسرجات الواقفات بأبواب السلطان. والله لوددت أي كنت راعي إبل مئة لرجل سيء الملكة.

ولما احتضر إبراهيم بن يزيد النخعي جزع جزعاً شديداً وجعل يقول: نفسي أعز الأنفس علي. فقيل له: يا أبا عمران، أتجزع هذا الجزع من الموت؟ فقال: وأي غرر أعظم مما أنا فيه، إنما أتوقع رسولاً من ربي إما بجنة وإما بنار.

ويروى أن فتى من الأعراب حضرته الوفاة، فنظر إلى أبيه وأمه يبكيان حواليه بكاءً ذريعاً، فقال: ما يبكيكما؟ فقالا له: إنا نعلم أن للموت ما تلد الوالدة، ولكن لزهو كان فيك. فقال: آله، ما يبكيكما إلا ذاك! فحلفا على ذلك فقال: فوالله الذي لا إله إلا هو ما يسرنى أن إليكما من أمري ما إلى ربي. ويروى أن رجلاً من أبناء فارس احتضر فجزع فقيل له: ما بك؟ فقال: ما ظنكم بمن يقطع سفراً بعيداً بلا زاد، ويقدم على حكم عادل بلا حجة، ويسكن قبراً موحشاً بلا مؤنس؟.

وصية المهلب بن أبي صفرة الأزدي

ولما احتضر المهلب بن أبي صفرة أوصى بنيه فقال: أوصيكم بتقوى الله وصلوة الرحم، فإن تقوى الله تعقب الجنة، وإن صلوة الرحم تنسى في الأجل، وتثري المال، وتجمع الشمل وتكثر العدد، وتعمر الديار، وتعز الجانب. وأنهاكم عن معصية الله، فإنها تعقب النار، وإن قطيعة الرحم تورث القلة والذلة، وتفترق الجمع، وتذر الديار بلقاعاً وتذهب المال، وتطمع العدو، وتبدي العورة. يا بني، قومكم قومكم! إنه ليس لكم عليهم فضل بل هم أفضل منكم إذ فضلواكم وسودوكم ووطؤوا أعقابكم، وبلغوا حاجاتكم لما أردتم، وأعانوكم، فلهم بذلك حق عليكم، وبلاء عندكم لا تؤدون شكره ولا تقومون بحقه. فإن طلبوا فأطلبوهم، وإن سألوا فأعطوهم، وإن لم يسألوا فابتدئوهم، وإن شتموا فاحتملوهم، وإن غشوا أبوابكم فلنفتح لهم ولا تغلق دوفهم. يا بني، إني أحب الرجل منكم أن يكون لفعله الفضل على لسانه، وأكره للرجل منكم أن يكون للسانه الفضل على فعله. يا بني، اتقوا الجواب وزلة اللسان، فإني وجدت الرجل تعثر قدمه فيقوم من زلته وينعش منها، ويزل لسانه فيوبقه، وتكون فيه هلكته. يا بني، إذا غدا عليكم رجل أو راح فكفي بذلكم مسألةً وتذكراً بنفسه. يا بني، ثيابكم على غيركم أحسن منها عليكم، ودوابكم تحت غيركم أحسن منها تحتكم. يا بني، أحبوا المعروف، وأكرهوا المنكر واجتنبوه، وآثروا الجود على البخل، واصطنعوا العرب وأكرمواهم، فإن العربي تعدد العدة فيموت دونك ويشكر لك، فكيف بالصنيعة إذا وصلت إليه، في احتماله لها، وشكره والوفاء لصاحبها. يا بني، سودوا كباركم واعرفوا فضل ذوي أسنانكم تعظموا به، وارحموا

صغيركم وقربوه وألطفوه واجبروا يتيئكم وعودوا عليه بما قدرتم، وخذوا على يدي سفهائكم، وتعاهدوا فقراءكم وجيرانكم بما قدرتم عليه، واصبروا للحقوق ونوائب الدهر. وعليكم في الحرب بالأناة، والتؤدة في اللقاء. وعليكم بالتماس الخديعة، في الحرب، لعدوكم، وإياكم والنزق والعجلة، فإن المكيدة والأناة والخديعة في الحرب أنفع من الشجاعة. واعلموا أن القتال والمكيدة مع الصبر، فإذا كان اللقاء نزل القضاء، فإن ظفر امرؤٍ وقد أخذ بالحزم قال القائل: قد أتى الأمر من وجهه، وإن لم يظفر قال: ما ضيع ولا فرط ولكن القضاء غالب. والزموا الحزم على أي الحالين وقع الأمر، والزموا الطاعة والجماعة، وإياكم والخلاف. تواصلوا وتأزرروا وتعاطفوا، فإن ذلك يثبت المودة. وخذوا فيما أوصيكم به بالجد والقوة والقيام به تظفروا بدنياكم ما كنتم فيها، وبآخرتكم إذا صرتم إليها ولا قوة إلا بالله. وليكن أول ما تبدؤون به إذا أصبحتم تعليم القرآن والسنن والفرائض، وتأدبوا بآداب الصالحين من قبلكم من سلفكم، ولا تقاعدوا أهل الدعارة والريبة، ولا يطمع في ذلك منكم طامع. وإياكم والخفة في مجالسكم وكثرة الكلام، فإنه لا يسلم منه صاحبه، وأدوا حق الله عليكم، فإنني قد أبلغت إليكم في وصيتي، واتخذت لله الحجة عليكم..

وتوفي بمرور الروذ وولي خراسان أربع سنين. فقال نهار بن توسعه: الطويل

ألا ذهب الغزو المقرَّب للغي ... ومات التدى والحزم بعد المهلب

أقاما بمرور الروذ رهن ترابه ... وقد غيَّبا عن كلِّ شرقٍ ومغرب

قال: ثم ولي بعد المهلب قتيبة بن مسلم فدخل عليه نهار بن توسعه وهو يعطي الناس، فلما رآه عرفه وقال:

أنت القائل في المهلب ما قلت؟ قال: بل أنا الذي أقول: الطويل

وما كان مذكنا ولا كان قبلنا ... ولا هو فينا كائن كابن مسلم

أعم لأهل الشُّرك قتلاً بسيفه ... وأقسم فينا مغنماً بعد مغنم

قال: إن شئت فأقلل، وإن شئت فأكثر، لا تصيب مني خيراً. يا غلام، حلق على اسمه فلزم بيته حتى ولي

يزيد بن المهلب خراسان، فأتاه فدخل عليه وهو يقول: الطويل

فإن يك ذنبي يا قتيبة أنني ... بكيت أمراً قد كان في الجود أوحدا

أبا كلِّ مظلومٍ ومن لا أبا له ... وغيث مغيباتٍ أطلن التلذدا

فشأنك إن الله إن سوت محسنٌ ... إليّ فقد أبقى يزيد ومخلدا

فقال له: احتكم، فقال: مئة ألف.

ويقال: إن مخلد بن يزيد هو الذي أعطاه، لأن أباه كان قدمه خليفةً على خراسان. فكان يقول بعد موت

مخلد: رحم الله مخلداً، ما ترك لي بعده من قول.

وكان يزيد بن المهلب أوصى مخلداً ابنه، لما سار من خراسان إلى جرجان فاستخلفه على خراسان، أن قال

له: يا بني، انظر هذا الحي من اليمن فكن فيهم كما قال أبو دؤاد الإيادي: الطويل

إذا كنت مرتاد الرجال لنفعمهم ... فرش واصطع عند الذين بهم ترمي

وكن لهذا الحي من بكر بن وائل كما قال امرؤ القيس: السريع

يا راكباً قولاً لإخواننا ... من كان من كندة أو وائل

إننا وإياكم وما بيننا ... كموضع الزور من الكاهل

قال: ونحى إلي عن مسلمة بن علقمة قال: كتب مروان بن محمد إلى ولد المسور يعزيهم عن أبيهم: قد بلغ أمير المؤمنين الذي كان من نازل قضاء الله في المسور بن عمرو، وما اختار الله له من المصير إليه، فعند الله يحتسب أمير المؤمنين مصابه ونعم المتوفي توفاه الله من بينكم. وفي جود الله الخلف الكافي. وقد أعاضكم الله من رزيبتكم رأياً من أمير المؤمنين جميلاً، فيه حسن الخلف عليكم. فلتحسن ظنونكم بربكم وخليفتم فإن الله لم يقبض ولياً له إلا أحسن خلافته في ولده وأهل لحمته.

وتحدث يعقوب بن داود قال: عزى السائب بن الأقرع عن ابن له، فقال السائب: هكذا الدنيا تصبح لك سارة، وتسمي عليك متكرة. ثم تمثل: الطويل

ألا قد أرى أن لا خلود وأته ... سينعق في داري غرابٌ ويحجل

ويقسم ميراثي رجالاً أعزّة ... وتذهل عني الوالدات وتشغل

وتحدث النضر بن إسحاق قال: ماتت امرأة بكر بن عبد الله المزني فاشتد حزنه عليها، فنهاه الحسن فقال: يا أبا سعيد، إنما كانت مواتية، وكانت .. وكانت .. فقال له الحسن: لا تيأس، فعند الله خير منها. ففتزوج أختها بعدها، فمر به الحسن بعد ذلك فقال: يا أبا سعيد، هذه خير من أختها.

قال أبو الحسن المدائني عن الحسن الجفري قال: لما مات سعيد، أخو الحسن، حزن عليه الحسن وقال: إنه لأعز أهلي علي، ولأن يكون لي أحب إلي من أن أكون له. فعاتبه بعض إخوانه فقال الحسن: يا عبد الله، قد حزن يعقوب على ابنه يوسف فلم يعنفه الله عز وجل بذلك.

وقال عن كليب بن خلف: قال عبد الكريم المازني لعبد الله بن عبد الله بن الأهم: كيف كان جزعك على أهل بيتك؟ فقال: ما ترك حب الغداء والعشاء في قلبي حزناً على أحد.

وقال يزيد بن عياض بن جعدية: كان عبد الله بن الزبير إذا أصابته مصيبة قال: قد قتل أبي وإمامي عثمان بن عفان فصبرت.

وقال أبو عبد الرحمن العجلاني: أخبرنا إسماعيل بن يسار قال: مات ابن لأرطاة بن سهية المري، من غطفان، فأقام على قبره حولاً يأتيه كل غداة فيقول: يا عمرو، إن أقمت حتى أمسي هل أنت رائح معي؟ ويأتيه عند المساء فيقول مثل ذلك، ثم ينصرف. فلما كان في رأس الحول تمثل: الطويل

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن ييك حولاً كاملاً فقد اعتنر

ثم انصرف عنه وهو يقول: الطويل

وقفت على قبر ابن ليلي فلم يكن ... وقوفي عليه غير مبكى ومجزع

هل أنت ابن ليلي إن نظرتك رائحٌ ... مع القوم أو غاد غداة غدٍ معي؟

فلو كان لي شاهد ما أصابني ... شهيقٌ على قبرٍ بأحجار أجمع

فما كنت إلا والهاً بعد زفرة ... على شجوها بعد الحنين المرجع

متى لا تجده تنصرف لطياتها ... من الأرض أو ترجع لإلفٍ فترتع

على الدهر فاعتب إته غير معتب ... وفي غير من قد وارت الأرض فاطمع
وقال أبو محمد الكعبي: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين استشهد أخوه زيد بن الخطاب باليمامة
وحضره رجل من بني عدي بن كعب، فرجع إلى المدينة، فلما رآه عمر دمعت عينه ثم قال:
أخلفت زيدا ثاوياً وأتيتني
وقال المثني بن عبد الله بن عوف: كان عمر بن الخطاب رحمه الله إذا أصابته مصيبة قال: قد فقدت زيدا
فصبرت. وكان يقول: ما هبت الصبا إلا وجدت نسيم زيد.
وقال أبو الحسن: أخبرني من أتق به عن حكيم من الحكماء قال: مات أخ له فجزع عليه، فقال له قاتل من
أصحابه: اصنع بنفسك ما يصنعه بك الدهر.
وأخبر عن أبي إبراهيم قال: قال عباد بن محاشن: استشهد لي ابنان فجزعت عليهما. فقال له رجل: ثم ماذا
قال: كان جرحاً فبراً.

وتحدث قال: لما مات معاوية دخل على يزيد أشرف أهل الشام، فلم يجتمع لأحد منهم تعزية مع تهنئة إلا
عطاء بن أبي سفيان فإنه قال: يا أمير المؤمنين، أصبحت قد رزنت خليفة الله، وأعطيت خلافة الله قضي
معاوية نجبة، فغفر الله له ذنبه، وأعطيت بعده الرئاسة، ومنحت السياسة؛ فاحتسب عند الله عظيم الرزية،
واشكره على جميل العطية وقال الأصمعي: لما ماتت البانوقة، ابنة المهدي، اشتد جزعه عليها فحجب الناس،
فبلفظ شبيب بن شيببة فدخل عليه فقال: يا أمير المؤمنين، والله خير لها منك، وثواب الله خير لك منها.
وإن أحق ما صبر عليه ما لم يقدر على دفعه. فكان هذا أول ما تسلى به، وأذن للناس.
وقال جويرية بن أسماء: اشتكى ابن لعبد الله بن عمر بن الخطاب، فجزع عليه. فلما مات لم يظهر منه مثل
ما كان يظهر في مرضه. فقيل له في ذلك فقال: كان ذلك مني رحمةً له ورقة، فلما وقع القضاء رضيت
وسلمت.

وقال أبو الحسن: أصبح رجل من بني هاشم وقد موت له عدة أباعر وشاء، فقال: لئن كانت المنية باتت
تطيف بي ثم أصبحت، وقد زالت عني إلى شاتي وبعيري، ثم جزعت إني لجزوع ثم قال: مجزوء الكامل
المرء يسعى سادراً ... حتى يقال له تعاله
وتحدث أبو الحسن المدائني، أو غيره، عن أبان بن تغلب النحوي قال: شهدت امرأة من الأعراب وبين يديها
ابن لها رجل وهو يجود بنفسه وعندها جماعة من قومها. فلما قضى وثبت إليه فغمضته وعصبته وترحمت
عليه ثم تنحت إلى مجلسها فقالت: يا أبان، ما أحق من ألبس النعمة وأطيلت به النظرة ألا يعجز عن التوثق
لنفسه من قبل حل عقدته والحلول بعقوته والحيلة بينه وبين نفسه. قال: فقال رجل من الأعراب ممن
حضرها: إنا لم نزل نسمع أنما الجزع للنساء، فوأيك لقد كرم صبرك، وما أشبهت للنساء؟! فقالت: ما
ميز إنسان بين صبر وجزع إلا وجد بينهما منهجين بعيدي التفاوت في حالتيهما. أما الصبر فحسن العلانية،
محمود العاقبة. وأما الجزع فغير معوض عوضاً مع مآثمه ولو كانا رجلين في صورة كان الصبر أولاهما بالغلبة
على الحسن في الخلقة والكرم في الطبيعة.

وقال أبان: حدثنا ابن السماك قال: جلسنا ننتظر جنازةً لتخرج إذ مر بنا أعرابي فوقف علينا فسلم ثم قال: إن أعظم المصيبة مصابكم برسول الله صلى الله عليه وسلم، عظم الله أجركم، ورحم ميتكم قال ابن السماك: فما يخيل إلي أني سمعت كلمات أوجز منهن: إنه صدر كلامه برسول الله صلى الله عليه وسلم، وعزانا، وترحم على ميتنا في كلمة واحدة.

وقال أبان: سمعت بعض الأعراب يتلهف على حميم له ثم تنفس الصعداء وقال: أيهاات ! عتب الناس على الدهر فلم يعتب مستعباً، ولم يرث لتلهف عليه، ثم قال: كل امريء منا يجري في السوابق من حتم الله عليه.

وتحدث الحرمازي رحمة الله عليه قال: كان مروان بن عبد الملك، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية، من أحب ولد عبد الملك إليه، فتوفي في حياة عبد الملك، وكان أهل العلم بعبد الملك بن مروان يرون أنه لو بقي لثلت به في العهد. فكتب إلى عبد الملك بعض عمومته من بني الحكم وهو غائب يعزيه عنه ويسأله كيف كان صبره. فكتب إليه بعد الملك: البسيط

كتبت تسأل عن صبري لتعلمه ... على الرزية بالمأمول مروان
فقد صبرت بعون الله محتسباً ... لموعده الله من فوز ورضوان
ولو حزنت ولم أصبر لفرقتنه ... ما كان في فقدته منهاة أحرابي

وقال الحرمازي: كان سبب موت مروان بن عبد الملك أنه وقع بينه وبين أخيه سليمان كلام ففعل عليه سليمان فقال له: يا بن ملخن أمه، ففتح فاه ليحبيه وإلى جانبه عمر بن عبد العزيز فأمسك على فيه ورد كلمته وقال له: يا أبا عبد الملك، أخوك إمامك وله السن عليك. فقال: يا أبا حفص قتلتني. قال: وما صنعت بك؟ قال: رددت في جوفي أحر من الجمر. ومال جنبه فمات. وفيه يقول جرير يخاطب أخاه لأمه، يزيد بن عبد الملك: الطويل

أبا خالدٍ فارقت مروان عن رضى ... وكان يزين الأرض أن تنزلا معا
فسيروا فلا مروان للحي إن شكوا ... ولا الركب إن أمسوا محفّين جوّعا
قال: وبلغني أن عبد الملك أمرغاسله إذا فرغ من جهازه أن يؤذنه، ففعل، فكشف عن وجهه ثم قال: الحمد لله الذي يقتل أولادنا ونحبه.

قال أبو الحسن: لما حضرت أيوب بن سليمان بن عبد الملك الوفاة وكان ولي عهد أبيه دخل عليه وهو يجود بنفسه، ومعه عمر بن عبد العزيز وسعيد بن عقبة ورجاء بن حيوة قال: فجعل ينظر في وجهه وهو يفوق بنفسه فحنقته العبرة فردها ثم نظر إلينا فقال: إنه، والله، ما يملك العبد أن يسبق إلى قلبه الوجد عند المصيبة والناس عند ذلك أخيف، فمنهم من يغلب صبره جزعه، فذلك الجلد الحازم المحتسب، ومنهم من يغلب جزعه صبره، فذلك المغلوب الضعيف العقدة، وليست منكم حشمة، وإني أجد في قلبي لوعة إن لم أبردها بعبرة خشيت أن تنصدع كبدي كمداً وأسفاً. فقال له عمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، الصبر أولى بك فلا تحبطن أجره. قال سعيد بن عقبة: فنظر إلي وإلى رجاء بن حيوة نظر مستغيث يرجو أن نساعد على ما

أراد من البكاء. فأما أنا فكرهت أن أمره أو أمناه، وأما رجاء فقال: يا أمير المؤمنين، افعل، فإني لا أرى بأساً ما لم تأت الأمر المفروط. فقد بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هلك إبراهيم اشتد وجهه عليه فدمعت عيناه فقال: تدمع العين ويوجع القلب ولا تقول ما يستخط الرب، وإنا بك لخزونون يا إبراهيم. قال: وأرسل عينيه فبكى حتى ظننا أن نياط قلبه قد انصدع، فقال عمر: يا رجاء، هذا ما صنعت بأمر المؤمنين! فقال: دعه، يا أبا حفص، يقض من بكائه وطراً، فإنه لو لم يخرج من صدره ما ترى لخفت أن يأتي عليه، ثم رقات عبرته فدعا بماء فغسل وجهه فأقبل علينا وقد قضى الفتى، فأمر بجهازه وخرج يمشي أمام جنازته، فلما دفن وحشي عليه التراب وقف قليلاً ينظر إلى قبره ثم قال: الطويل

وقفت على قبرٍ مقيمٍ بقفرةٍ ... متاعٌ قليلٌ من حبيبٍ مفارقٍ
ثم قال: السلام عليك يا أيوب السريع

كنت لنا أنساً فأوحشتنا ... فالعيش من بعدك مرّ المذاق

ثم قال: أدن، يا غلام، دابتي، فركب ثم عطف برأس دابته إلى القبر ثم قال: البسيط

فإن صبرت فلم ألفظك من شيعٍ ... وإن جرعت فعلقٌ منفسٌ ذهاباً

فقال عمر: يا أمير المؤمنين، بل الصبر، فإنه أقرب إلى الله وسيلة وليس الجزع يحيي من مات، وبالله العصمة والتوفيق.

وقال الحسن بن عمارة عن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد عن أبيه عن عائشة قالت: لما مات عبد الله بن أبي بكر وجد عليه أبو بكر وجداً شديداً ثم دخل علي فقال: يا عائشة، والله لكأنا أخذ بأذن شاة من دارنا فأخرجت، فقلت: الحمد لله الذي عزم لك على رشدك، وربط على قلبك. قالت: ثم جاء بعد ذلك فقال: أي بنية، أتخافين أن تكونوا دفنتم عبد الله وهو حي؟. فقلت: استعذ بالله يا أبة. فقال: أستعذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، أي بنية، إنه ليس أحد إلا وله من الشيطان لمة. فرثته عاتكة امرأته، وهي ابنة زيد بن عمرو بن نفيل فقالت: الطويل

فآليت لا تنفك عيني سخينةً ... عليك وجلدي آخر الدهر أغبرا

وهذا يتصل بخبر ليس من هذا الباب.

ولما مات عبد الرحمن بن أبي بكر لم تحضره عائشة، فأنت قبره فقالت: يا أخي، لو كنت شهدت وفاتك لم أزر قبرك ثم تمتلت: الطويل

وكنا كندماني جديمة حقةً ... من الدهر حتى قيل لن نتصدعا

فلما تفرقنا كأني ومالكاً ... لطول اجتماع لم نبت ليلةً معا

وحدثنا ابن عائشة، وحدثني غيره وحدثنيته أتم أن عائشة حضرت أبا بكر رحمة الله عليه وهو يقضي فقالت: هذا والله قوله: الطويل

أماوي ما يغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فقال: أي بنية، لا تقولي كذا وقولي: وجاءت سكرة الموت بالحق وهكذا كان يقرؤها أبو بكر رحمه الله.

قال الهلالي: كان أبو بكر الصديق، رحمة الله عليه، إذا قيل له: مات فلان قال: لا إله إلا الله. وكان عثمان،

رحمه الله، إذا قيل له: مات فلان قال: لا إله إلا الله وقال الهلالي: قيل لمعاوية: مات زياد، فقال: وارجلاه، ثم قال: الطويل

أفردت سهماً في الكنانة واحداً ... سيرمي به أو يكسر السهم كاسر

وقال: لما هلك ابن معاذ بن جبل، كتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد. فإن أنفسنا وأهلينا وأموانا ودائع الله جل ذكره وعواريه المستودعة يمتنع بها من يشاء إلى أجل معدود، ويقبضها لوقت معلوم، فأمرنا بالشكر إذ أعطانا، وبالصبر إذ ابتلانا، فكان ابنك من مواهب الله الهنية، ومن عواريه المستودعة يمتنع بها من يشاء إلى أجل معدود، ويقبضها لوقت معلوم. وقد منعك الله به، في غبطة وسرور، وقبضه منك بأجر كبير، فالصلاة والرحمة والهدى، يا معاذ إن صبرت واحتسبت. فلا يذهبن جزعك أجرك فتندم على ما فاتك. فإنك لم قدمت على ثواب مصيبتك، قد أرضيت ربك وتنجزت موعوده علمت أن المصيبة قد قصرت عنك. واعلم أن الجزع لا يرد ميتاً ولا يدفع حزناً. فأحسن العزاء، وتنجز الموعود، وليذهب أسفك ما هو نازل بك فكأن قد.

ولما مات مسمع جاء شبيب بن شيبه حتى أخذ بالباب الذي فيه ولده وأهله وبنو عمه فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ثم قال: الكامل

بكوا حذيفة لن ترتوا مثله ... حتى تبعد قبائل لم تخلق

قال الأصمعي: مر رجل على بعض مقابر العرب فإذا هو بشيخ قاعد على شفير قبر، وبين يديه فتية كأنهم الرماح يدفنون رجلاً، والشيخ يقول: الرجز

أحثوا على اللديسم من برد الثرى ... قدماً أبي ربك إلا ما ترى

قال: فسألت الشيخ: من الميت؟ فقال: ابني. فقلت: فمن هؤلاء؟ قال: بنوه.

وقال أبو جعفر الدمشقي: حدثنا أبو بكر السلمي عن المعافى بن عمران عن شهاب بن خراش عن عبد الرحمن بن عثمان قال: دخلنا على معاذ بن جبل وهو قاعد عند رأس ابن له يجود بنفسه، فما ملكنا أنفسنا أن ذرفت أعيننا وانتحب بعضنا فزجره معاذ وقال: مه، فوالله لعلم الله برضاي بهذا أحب إلي من كل غزوة غزوتها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإني سمعته يقول: من كان له ابن وكان عليه عزيزاً وبه ضنيناً، فصبر على مصيبتيه واحتسبه أبدل الله الميت داراً خيراً من داره، وقراراً خيراً من قراره، وأبد المصاب الصلاة والرحمة والمغفرة والرضوان. فما برحنا حتى قضى الغلام حين أخذ المنادي في النداء لصلاة الظهر، فرحنا نريد الصلاة فما جئنا إلا وقد غسله وحطه وكفنه ودخل بسريره غير منتظر لشهادة الإخوان ولا لجمع الجيران.

قال: فلما بلغنا ذلك تلاحقناه قتلنا: يغفر الله لك يا أبا عبد الرحمن، هلا انتظرتنا حتى نفرغ من صلاتنا ونشهد ابن أختينا. فقال: أمرنا ألا ننتظر بموتانا ساعة، ماتوا من ليل أو نهار. والإذن فيهم من نعي الجاهلية.

قال: فنزل في القبر ونزل معه آخر فقلت: الثالث يا أبا عبد الرحمن، فقال: إنما يقول الثالث الذين لا

يعلمون. فلما سوى عليه التراب أراد الخروج فناولته يدي لأنتشطه من القبر فأبى وقال: ما أدع ذلك لفضل قوة، ولكن أكره أن يرى الجاهل أن ذلك مني جزع أو استرخاء عند المصيبة. ثم أتى مجلسه فدعا بدهن فادهن بكحل فاكتحل وبرد فلبسها، وأكثر في يومه ذلك من التبسم، ينوي به ما ينوي، ثم قال: إنا لله وإنا إليه راجعون. في الله خلف من كل هالك، وعزاء من كل مصيبة، ودرك لكل ما فات. وقال: سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول: من أصيب بمصيبة فدعا عليها ويلاً غضب الله عليه، ومن لطم عليها وجهاً احتجب الله عنه، ومن خرق عليها ثوباً خرق دينه ومزقه وبدده.

قال: فلما كان طاعون عمواس طعن معاذ في يده، فدخلنا عليه فرأيناه مغمى عليه، باسطاً يده كأنه يصافح قوماً ويرحب بهم. فلما أفاق قلنا له: يا أبا عبد الرحمن، دخلنا عليك وكأنك تصافح قوماً وترحب بهم.

فقال: أجل، شكرني ربي بصبري على ابني فأرسل إلي ملائكة من الكرويين يشيعوني إلى قبري.

باب مرث من أشعار المحدثين

قال أبو العباس: وقصدنا في وقتنا هذا لذكر مرث من أشعار المحدثين لننزل بها من خشونة أشعار القدماء إلى لطف المولدين لمشكلة الدهر وملاحة القول لنمضي من ذلك شيئاً ثم نعود إلى أمرنا الأول إن شاء الله تعالى من أشعار قديمة ومواعظ حكيمة. وبالله الحول والقوة.

قال مسلم بن الوليد يرثي الفضل بن سهل ذا الرئاستين: الطويل
وهلت فلم أمتع عليك بعبرة ... وأكبرت أن ألقى يومك ناعيا

فلما رأيت أنه لا عج الأسى ... وأن ليس إلا الدمع للحزن شافيا
بعثت لك الأنواح فارتجّ بينها ... نوائح يندبن العلى والمساعيا
ألبأس أم للجود أم لمقاوم ... من الملك يزحمن الجبال الرواسيا
فلم أر إلا قبل يومك ضاحكاً ... ولم أر إلا بعد يومك باكياً

وقال إبراهيم بن المهدي يرثي ابناً له أصيب به بالبصرة وهو واليهما. وكان فيما يؤثر عنه يستحق أن يرثي وأن يوصف، وشعره هذا يستحق أن يبكي القلوب، ويستنزل المموع لحسن لفظه، وصحة معناه، وشرف قائله، وأنه إذا سمع علم أنه عن نية صادقة. قال: الطويل
نأى آخر الأيام عنك حبيب ... فللعين سحّ دائمٌ وغروب
دعته نوى لا يرتجى أوبة لها ... فقلبك مسلوبٌ وأنت كئيب
يؤوب إلى أوطانه كلّ غائب ... وأحمد في الغياب ليس يؤوب
تبدل داراً غير داري وجيرة ... سواي وأحداث الزمان تنوب
أقام بها مستوطناً غير أنه ... على طول أيام المقام غريب
تولّى وأبقى بيننا طيب ذكره ... كباقي ضياء الشمس حين تغيب
خلا أن ذا يفنى ويلى وذكره ... بقلي على طول الزمان قشيب

كأن لم يكن كالدّرّ يلمع نوره ... بأصدافه لما تشنه تقوب
كأن لم يكن كالغصن في ميعة الصّحى ... سقاه التّدى فاهتزّ وهو رطيب
كأن لم يكن زين الفناء ومعقل التّس ... اء إذا يومً يكون عصب
وريجان قلبي كان حين أشمه ... ومؤنس قصري كان حين أغيب
قليلاً من الأيّام لم يرو ناظري ... بها منه حتّى أعلقته شعوب
كظلّ سحاب لم يقيم غير ساعةٍ ... إلى أن أطاحتها فطاح جنوب
أو الشّمس لما عن غمامٍ تحسّرت ... مساءً وقد ولّت وحن غروب
كأني به إذ كنت في التّوم حالمٌ ... نفى لذّة الأحلام عنه هبوب
فلست خطوب الدّهر أحفل بعده ... ولو كان ما منه الوليد يشيب
ولا لي شيءٌ عنه ما عشت لذّة ... ولو نلت ما هبت عليه هبوب
وكان نصيب العين من كلّ لذّةٍ ... فأضحى وما للعين منه نصيب
وكان وقد آزى الرجال بعقله ... فإن قال قولاً قال وهو مصيب
بما تتهداه الرّكاب لحسنه ... ويفحم منه الكهل وهو أريب
وكانت يدي ملأى به ثمّ أصبحت ... بعدل إلهي وهي منه سليب
وكت به في التّائبات إذا عرت ... وظهري مُمتدّ القنّاة صليب
بحال الذي يجتاحه السّيل بغتةً ... فيفتقد الأذنين وهو حريب
جمعت أطباء العراق فلم يصب ... دواءك منهم في البلاد طيب
ولم يملك الآسون دفعاً لمهجةٍ ... عليها لأشراك المنون رقيب
سأبكيك ما أبقت دموعي والبكا ... بعيني ماءً يا بنيّ يجيب
وما لاح نجمٌ أو تغنّت حمامةٌ ... أو اخضرّ في فرع الأراك قضيب
وأضمر إن أنفدت دمعي لوعةً ... عليك لها تحت الصّلوع وجيب
حياتي ما كانت حياتي فإن أمت ... ثويت وفي قلبي عليك ندوب
يعزّ عليّ أن تنالك ذرّةً ... بمسك منها في الممرّ ديب
وما زال إشفافي عليك عشيةً ... حواك بها بعد النّعيم قليب
وما زال إشفافي عليك عشيةً ... وسادك فيها جندلٌ وجوب
فما لي إلّا الموت بعدك راحةً ... وليس لنا في العيش بعدك طيب
قصمت جناحي بعدما هدّ منكبي ... أخوك، ورأسى قد علاه مشيب
فأصبحت في الهلاك إلّا حشاشةً ... تذاب بنار الشّوق فهي تذوب
تولّيتما في حجةٍ فتر كما ... صدىً يتولّى تارةً ويتوب
ولا رزء إلّا دون رزتك رزؤه ... ولو فتت حزناً عليك قلوب

وإني وإن قلّمت قبلي لعالمٌ ... بأني وإن أبطأت منك قريب
وإن صباحاً نلتقي في مسائه ... صباحاً إلى قلبي الغداة حبيب
وقال إسماعيل بن القاسم، أبو العتاهية يرثي أخاً له، يقال له علي بن ثابت وكان علي ناسكاً فاضلاً أديباً
شاعراً: الوافر

ألا من لي بأنسك أي أخياً ... ومن لي أن أبئك ما لدياً
طوتك خطوب دهرك بعد نشرٍ ... كذاك خطوبه نشرًا وطياً
ولو نشرت قواك لي المنايا ... شكوت إليك ما صنعت إلياً
بكيك أي أخي بدرّ عيني ... فلم يغن البكاء عليك شيئاً
وكانت في حياتك لي عظامٌ ... وأنت اليوم أو عظ منك حيّاً
قال: أخذ هذا المعنى مما يؤثر عن بعض ملوك العجم أنه احتضر فحضره من يحضر الملوك من الحكماء حتى
قضى. فقال ذلك الحكيم: كان الملك أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أو عظ منه أمس.

وقال أبو العتاهية أيضاً: الخفيف

يا عليّ بن ثابتٍ أين أنتا ... أنت بين القبور حيث دفنتا
يا عليّ بن ثابتٍ بان منّي ... صاحبٌ جلّ فقده يوم بنتا
قد لعمرى حكيت لي غصص الموات ... ت وحرّكتني لها وسكنتا
أخذ هذا المعنى من قول بعض الحكماء وحضر ميتاً، فارتفع البكاء عيه حين قضى، فقال الحكيم: حرّكتنا
بسكونه.

وقال فيه أيضاً: مجزوء الخفيف

صاحبٌ كان لي هلك ... والسبيل الذي سلك
يا عليّ بن ثابتٍ ... غفر الله لي ولك
كلّ حيٍّ مملّكٍ ... سوف يفنى وما ملك

قال أبو العباس: وأنشدني أبو محمد التوزي لرجل من قيس يرثي ابنه: الطويل

أجارتنا لا تجرعي وأنبي ... أتاني من الموت المطل نصيبي
بنيّ على عيني وقلبي مكانه ... ثوى بين أحجارٍ وبطن جوب
عجبت لإسراع المنية نحوه ... وما كان لو ملّيته بعجيب
وما هدّ ركني أن سلبت جماله ... على أنّي أرثي لكلّ سليب
صبرت على خير الفتور رزنته ... ولولا اتقاء الله طال نحبي
وما جزعي من نازل عمّ فجعه ... ومن ورد آباري وقصد شعبي
لعمرى لقد دافعت موت محمّدٍ ... لو أنّ المنايا ترعوي لطيب
وكان كريحان العروس بقاؤه ... ذوى بعد إشراق الغصون وطيب
فيا حزناً نغصت قرب محمّدٍ ... وأيّ فتى نغصت يوم ركوبي

أغرّ طويل السّاعدين مشيّعٌ ... كسيف الخامي هزّ غير كذوب
دعته المنايا فاستجاب لصوتها ... فله من داعٍ دعا ومجيب
فأصبحت أبادي للعدوّ جلادةً ... ويا لك من قلب هناك كئيب
يذكّرني نوح الحمام فراقه ... وإرنان أبكار النساء وثيب
ولي كلّ يومٍ عبرةٌ لا أفيضها ... لأحظى بصبرٍ أو بحطّ ذنوب
أظّل لأحداث المنون مفزّعاً ... كأنّ فؤادي في جناح طلوب
إذا شئت راعتني مقيماً وظاعناً ... مصارع شبّانٍ لديّ وشيب
غدا سلفٌ متّاهجٌ رائحٌ ... على أثر الغادين قود جنيب
وما نحن إلّا كالخليط الذي مضى ... فرائس دهرٍ مخطيءٍ ومصيب
نؤمل عيشاً في حياةٍ ذميمةٍ ... أضرتّ بأبدانٍ لنا وقلوب
وما خير عيشٍ لا يزال مفزّعاً ... بفوت نعيمٍ أو بموت حبيب

قال أبو العباس: حدثنا المغيرة بن محمد المهلب عن الزبير بن بكار الزبيري عن سليمان بن العباس السعدي قال: جاء عبد الله بن عمر العجلي إلى سويقة وهو طريد بني العباس وكان ذلك بزمان خروج ملك بني أمية وانتقاله إلى بني العباس، قاصداً لعبد الله وحسن، ابني حسن، فاستنشد عبد الله من شعره فأنشدهم فقالوا: نريد من شعرك ما رثيت به قومك، وما كان من أمركم وأمر القوم فأنشدهم قوله: المتقارب
تقول أمانة لما رأت ... نشوزي عن المنزل المنفس
وقلة نومي على مضجعي ... لدى هجعة الأعين التّعس:
أي، ما عراك؟ فقلت: الهمو ... م عرين أباك فلا تبلسي
عرين أباك فحبّسنه ... من الطرد في شرّ ما محبس
لفقد العشيرة إذ نالها ... سهامٌ من الحدث الموثس
رمتها المنون بلا نصّلٍ ... ولا طائشاتٍ ولا نكّس
بأسهمها الخالسات النفوس ... متى ما تصب مهجةً تجلس
فصرعاهم في نواحي البلا ... دملقى بأرضٍ ولم يرسس
تقيّ أصيب وأثوابه ... من العار والعيب لم تدنس
وآخر قد رسّ في حفرةٍ ... وآخر طار فلم يحسس
فكم من كوابٍ بواكي العيو ... ن حزناً ومن صبيةٍ بوّس
إذا ما ذكرتهم لم تتم ... صباح الوجوه ولم تجلس
يرجعن مثل بكاء الحما ... م في مأمّ قلقٍ اجلس
فذاك الذي غالي فاصمتي ... ولا تسأليني وتستحسي
وفي ذاك أشياء قد ضفني ... ولست هنّ بمستحلس

أفاض المدامع قتلى كدى ... وقتلى بكثرة لم ترمس
وبالزّابين نفوسٌ ثوت ... وقتلى بنهر أبي فطرس
أولئك قومٌ أذاعت بهم ... حوادث من زمنٍ معس
فذلّت قناتي لمن رامها ... وأنزلت الرّغم بالمعطس

قال: فلما أتى عليها استبكى محمد بن عبد الله بن حسن، فنظر عبد الله إلى أخيه حسن فقال: مالك تنظر إلي
! أما والله، لو كان ابنك على غير ما ترى لكان خيراً لنا ولك. فأقبل محمد على عمه يظهار الشفقة على
بن العباس ويقول إنهم ليسوا كبنى أمية لقرب بني العباس من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقام الحسن
إلى منزله فبعث إلى العبلي بخمسين ديناراً، وأمر له عبد الله، ومحمد وإبراهيم ابناه، كل واحد بخمسين
ديناراً. وكانت هند بنت أبي عبيدة بن عبد الله بن زمة مقتنية بالعبلي. وهند المذكورة هي امرأة عبد الله بن
حسن، ومحمد وإبراهيم ولداها. فقال العبلي: الوافر
أقام ثويّ بنت أبي عبيدٍ ... بخير منازل الجيران جارا
أتاهم خائفاً وجلاً طريداً ... فصادف خير دور التّاس دارا
إذا ذمّ الجوار نزيل قومٍ ... شكرتهم ولم أذمم جوارا
فقالت هند لعبد الله وابنيها محمد وإبراهيم: والله ما مدحك بأفضل مما مدحني به فلنعطنه عني مثل ما أعطاه
أحدكم. فأعطوه عنها خمسين ديناراً.

فقال الزبير: إنما ينسب علياً من كان من ولد أمية الأصغر، وليس عبد الله هذا من ولده، إنما أمية عمه.
يقال: فلان يقتني بفلان إذا كان يؤثره، والقفية: الطعام يؤثر به الرجل واحداً يقدمه. ويقال للرجل يختار
ويقصد بالبر: ألقيت قفيتي عليك.

وقال أحد الأعراب الفصحاء: الطويل

لعمري لقد نادى بأرفع صوته ... نعيّ حييً أن سيّدكم هوى
أجل صادقاً والقائل الفاعل الذي ... إذا قال قولاً أنبط الماء في الثرى
فتىّ قبل لم تعسّ ألسنّ وجهه ... سوى شهب في الرّأس كالفجر في الدّجى
أشارت له الحرب العوان فجاءها ... يقعقع بالأقرب أول من أتى
ولم يجنّها لكن جناها وليّه ... فأدى وآساه فكان كمن جنى
وقال أيضاً يرثيه: الوافر

ألا لهف الأرامل واليتامى ... ولهف الباقيات على حييّ

لعمرك ما خشيت على حييّ ... متالف بين حجر والسليّ
ولكنّي خشيت على حييّ ... جريرة رحمة في كلّ حييّ
وقال امرأة من كندة ترثي إخوتها: الطويل

أبوا أن يفرّوا والقنا في نحورهم ... فماتوا وأطراف القنا تقطر الدّما

ولو أنّهم فرّوا لكانوا أعزّة ... ولكن رأوا صبراً على الموت أكرما
هوت أمّهم ماذا بهم يوم صرّعوا ... بجيشان من أسباب مجدّ تصرّما
وقال رجل من الخوارج يرثي عدداً منهم: الوافر
ألا في الله لا في الناس سالت ... بداوودٍ وإخوته الجذوع
مضوا قتلاً وتشريداً وصلباً ... تحوم عليهم طيرٌ وقوع
إذا ما الليل أظلم كابدوه ... فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا ... وأهل الأمن في الدنيا هجوع
وقالت الكندية: البسيط

لا تخبروا الناس إلا أنّ سيّدكم ... أسلمتموه ولو قاتلتم امتنعا
أعني فتى لم تهبّ الرّيح رائحةً ... يوماً من الدهر إلا ضرّ أو نفعا
الواهب الألف لا يبغي لها ثمناً ... إلا من الله والحمد الذي صنعا
وقال أبو عبد الرحمن العتبي: البسيط

قد كنت أبكي على من فات من سلفي ... وأهل وديّ جميع غير أشنات
والآن إذ فرقت بيني وبينهم ... نوى بكيت على أهل المودّات
وما بقاء امريء كانت مدامعه ... مقسومةً بين أحياء وأموات
وكان أبو عبد الرحمن وسيطاً في قريش، من ولد عتبة بن أبي سفيان. وكان معدناً من معادن العلم بالأخبار
جاهليتها وإسلاميتها وكان بالإسلامي أخبر. وتوالى له بنون موتاً. وراثهم مرثي كثيرة نذكر بعضها مع ما
في غيرهم من المرثي إن شاء الله.

فمن ذلك قوله: الكامل

أضحت بخديّ لللموع رسوم ... أسفاً عليك وفي القواد كلوم
والصبر يحمد في المصائب كلّها ... إلا عليك فإنّه مذموم
يا واحداً من ستّة أسكنتهم ... حفراً تقسّم بينهم ورجوم
لولا معالم روسهنّ لما اهتدى ... لحميمه بين القبور حميم
وقال أيضاً: المنسرح

كلّ لساني عن وصف ما أجد ... وذقت ثكلاً ما ذاقه أحد
وأوطنت حرقةً حشاي فقد ... ذاب عليها القواد والكبد
إن أزمعت بالعزاء لّجّ بها الشّ ... وق فيران حرّها تقد
ما عاج الحزن والحرارة في ال ... أحشاء من لم يمّت له ولد
فجعت بابنين ليس بينهما ... إلا ليالٍ ليست لها عدد
فالتفّس تطوى على أحرّ من ال ... جمر وأدنى أرجائها الكمد
وكلّ حزنٍ يلى على قلم الدّ ... هر وحزني يجده الأبد

ويروى عن الحسن البصري أنه قال: قدم علينا بشر بن مروان وهو أشرف الناس، وأجمل الناس، وأشب الناس، ابن خليفة وأخو خليفة، فلبث خمسة وأربعين يوماً ثم طعن في نيطة فمات. فخرج به إلى قبره والناس معه. وجاء سودان ثلاثة يحملون أسود، فدفن هذا وهذا. وخرجت إلى الصحراء ثم رجعت وقد انصرف عنهما، فلم أعرف قبر هذا من قبر هذا.

قال أبو العباس: حدثني هارون بن محمد بن عبد الملك المعروف بالزيات وحدثني بهذا الحديث الذي أذكره غيره أيضاً أن محمد بن عبد الملك كانت له جارية وكان بها ضنيناً، وكان له منها ابن يقال له عمر وهو باق الآن، فماتت وابنها هذا صغير. وسمعت أبا أيوب سليمان ابن وهب يتحدث بقطعة من خبر محمد بن عبد

الملك في ضنه بابنه هذا. فرثاها بييتين هما جاريان على ألسن الناس مشهوران: الطويل

يقول لي الخلال لو زرت قبرها ... فقلت: وهل غير القواد لها قبر؟

على حال لم أحدث فأجهل عهدا ... ولم أبلغ السن التي معها الصبر

ورثاها فقال شعراً يقرب من القلب، ويضطر إلى تصديقه، ويرتاح لعهد قاتله، ويرحم لشكوى بته وهو:

الطويل

ألا من رأى الطفل المغارق أمه ... بعيد الكرى عيناه تنسكبان؟

رأى كل أم وابنها غير أمه ... يبيتان تحت الليل ينتجيان

يرن بصوت فض قلبي نشيجه ... وسح دموع ثرة الهملان

وبات وحيداً في الفراش تحته ... بلابل قلب دائم الحفقان

ألا إن سجلاً واحداً إن هرقته ... من الدمع أو سجلين قد شفياني

فلا تلحياني إن بكيت فإنما ... أداوي بهذا الدمع ما تريان

وإن مكاناً في الثرى خطّ لحده ... لمن كان من قلبي بكل مكان

أحقّ مكان بالزيارة والهوى ... فهل أنتما إن عجت منتظران؟

فهبني عزمت الصبر عنها لأنني ... جليدٌ، فمن بالصبر لابن ثمان؟

ضعيف القوى لا يطلب الأجر حسبةً ... ولا يأتسي بالناس في الحدائان

ألا من أمّيته المنى وأعدّه ... لعثرة أيامٍ وصرف زمان؟

ألا من إذا ما جئت أكرم مجلسي ... وإن غبت عنه حاطني وكفاني؟

فلم أر كالأيام كيف تصيبي ... ولا مثل هذا الدهر كيف رماني

ولا مثل أيام فجعت بفقدتها ... ولا مثل يوم بعد ذلك دهاني

أعيني إلا تسعدا اليوم عبرتي ... فيس إذن ما في غدٍ تعداني

أعيني إن أع السرور وأهله ... وعهد الصبا عندي فقد نعياني

أعيني إن أبك البشاشة والصبا ... فقد آذنا مني وقد بكياي

ألا إن بيتاً لم أزره لشد ما ... تلبس من قلبي به وعاني

ألا إن بيتاً لم أزره لعزّ ما ... تضمّن منه في الثرى الكفنان
وقال رجل من الأنصار يذكر امرأة كانت له، وكانت به برة، وله حافظة إذا غاب، وسارة إذا حضر،
فأصيب بها: الطويل

ألا ما لهذا البيت ليس بذى أهل ... تنكّرت ما قد كنت تألف من قبلي
أيا جارتا لا تبعدي خير جارة ... لبعلٍ وأحناه على ولدٍ طفل
فلو أنّي كنت العليل لأيقظت ... بنيتها وما نامت ولا فعلت فعلي
وقال رجل من بني شيبان يرثي معن بن زائدة: الطويل

أحين ثوى معنٌ ثوى الجود والتدى ... وأصبح عرنين المكارم أجدعا
فيا قبر معنٍ أنت آخر خطّة ... من الأرض خطّت للمكارم مضجعا
ويا قبر معنٍ كيف وارتيت جوده ... وقد كان منه البرّ والبحر مترعا
بلى قد وسعت الجود والجود ميّت ... ولو كان حياً ضقت حتى تصدّعا
فتىّ عيش في معروفه بعد موته ... كما عاد غيثٌ بعد جدواه مرتعا

وقال عبد الصمد بن المعدل يرثي سعيد بن سلم. وشهرة أفعال سعيد وبعد صيته في عقله وأدبه، وجاهه
وقدره، وكثرة معروفه وتمكنه من الخلفاء، تغني عن ذكر شيء من أفعاله: البسيط
ما للسماء عليه ليس تنفطر ... وللكواكب لا قهوي فتشتت؟

وللبلاء ألا تسمو زلازها ... والرّاسيات ألا تردى فتتقعر؟
إنّ التدى وأبا عمرو يضمهما ... قبرٌ ببغداد يستسقى به المطر
لله حزمٌ وجودٌ ضمّه جدثٌ ... ومكرماتٌ طواها التّرب والمدر
يا طالباً وزراً من ريب حادثةٍ ... أودى سعيدٌ فلا كهفٌ ولا وزر
أبكى عليك عيون الحيّ من يمنٍ ... ومن ربيعة ما تبكي له مضر
كلّ القبائل قد ردّيت أرديةً ... من فضل نعماك لا يجري بها شكر
ما خصّ رزؤك لا قيساً ولا مضراً ... إنّ الرّزية معمومٌ بما البشر
لو كان يبكي كتاب الله من أحدٍ ... لطول إلفٍ بكلك الآي والسور
أبو الأرامل والأيتام ليس له ... إلا مراعاتهم همٌ ولا وطر
للهاربين مصادٌ غير مطّلعٍ ... وللغفاة جنابٌ ممرعٌ خضر
من كلّ أفقٍ إليه العيس معملةٌ ... وكلّ حيٍّ على أبوابه زمر
المصاد: رأس الجبل يتحصن فيه الخائفون، كما قال أوس بن حجر: الطويل

إذا أبرز الخوف الكعاب فإنّهم ... مصادٌ لمن يأوي إليهم ومعقل
مشيخٌ لا يفوت الذّحل صولته ... وأكرم الناس عفواً حين يقتنر
لا يزدهيه لغير الحقّ منطقه ... ولا تناجيه إلا بالتّقى الفكر

ثبتت على زلل الأيام مضطلعٌ ... بالتأنيبات لصعب الدهر مقتسر
سامي الجفوني يروق الطرف منظره ... وأطهر الناس غيباً حين يختبر
الحلم يصمته والعلم يطقه ... وفي تقى الله ما يأتي وما يذر
لم تسم همته يوماً إلى شرفٍ ... إلا حباه بما يسمو له الظفر
يعطيك فوق المنى من فضل نائله ... وليس يعطيك إلا وهو معتذر
يزيد معروفه كبيراً ويرفعه ... أن الجسيم لديه منه محقر
وليس يسعى لغير الحمد يكسبه ... وليس إلا من المعروف يدخر
عفّ الصّمير رحيب الباع مضطلعٌ ... لحرمة الله والإسلام منتصر
ما انفك في كلّ فجٍّ من ندى يده ... للناس جودان: محويٌّ ومنتظر
لو هاب عن عزّةٍ أو نجدةٍ قلرٌ ... من البريّة خلقاً هابك القدر
ليبك فقدك أطراف البلاد كما ... لم يحل من نعمة أسديتها قطر
ولييك المرملون الشعث ضمّهم ... من كلّ أوب إلى آياتك السّفر
وذات هدمين تزجي دردقاً قزماً ... مثل الرّئال حباها البؤس والكبر
ويبكك الدّين والدّنيا لرعيهما ... والبرّ والبحر والإعسار واليسر
كفلت عترة أقوام مهاجرةٍ ... عثمان جدّهم أو جدّهم عمر
وقد نصرت وقد آويت محتسباً ... أبناء قوم هم آووا وهم نصروا
ياربّ أرملةٍ منهم ومكتهلٍ ... أيتّمته وهو مبيضٌ له الشّعر
لله شمل جميعٍ كان ملتتماً ... أضحى ليوم سعيدٍ وهو منتشر
أمسى لفقديك ظهر الأرض محتشعاً ... بادي الكآبة واختالت بك الحفر
أحيك عمروً ولولاه وإخوته ... عفا التّوال فلم يسمع له خبر
أهمتهم طوعه فانقاد رشدهم ... كلُّ يراه بحيث السّمع والبصر
كأنّهم كنفاه وهو بينهم ... بلر السّماء حوته الأنجم الزّهر
بنو قتيبة نور الأرض نورهم ... إذا خبا قمرٌ منهم بدا قمر
إذا تشاكهت الأيام واشتبهت ... أبان أيّامك التّحجيل والغرر
إمّا ثويت فما أبقيت مكرمةً ... إلا بكفّيك منها العين والأثر
إنّ اللّياي والأيام لو نطقت ... أثنت بالآئك الآصال والبكر
كان التّدى في شهور الحول مقتسماً ... بين البريّة فاغتال التّدى صفر

قال: وكان سعيد عامراً لطرق الخير، عواداً على الأيتام والأرامل، وعلى أبناء المهاجرين والأنصار. وكان حسن العزاء، وكان يقدم من بنيه عمراً وسلاماً فأتاه موت ابن له يقال له العباس في يوم مات سلم بحضرته، وكانت ميتة العباس بكرمان، قتله بها الخوارج، فذكر الحسن بن رجاء أنهم دخلوا عليه مع رجاء بن أبي الضحاك ليعزوه عنهما، فأروا عنده من العزاء ما لو شهدته من لم يعرف القصة لظن أنه المعزي.

وحدثني ابن موسى بن سعيد بن سلم أن سعيداً كان عنده قوم على الطعام في عقب موت سلم، فحدثهم حديثاً ثم قال لهم، واللحمة في يده: حدثني بهذا ابني سلم رحمه الله. ثم وضع اللحمة في فيه. وقال عبد الصمد فيه: الخفيف

ربّ طفلٍ نعشته بعد يتم ... وفقيرٍ أغنيته بعد عدم
كلّما عصّت الحوادث نادى ... رضي الله عن سعيد بن سلم
وقال عبد الصمد يرثي عمرو بن سعيد بن سلم: الطويل
هريقاً دماً إن أنفدت عبرة تجري ... أبي الصبر أن الرزء جلّ عن الصبر
ولا تجمدا عينيّ قد حسّن البكا ... وفرط الأسي فقد المغيب في القبر

ليغر كما بالبت أن لست واقفاً ... من الصبر يوماً بعد عمرو على عنبر
سلامٌ وسقيا من يد الله ثرة ... على جسدٍ بال بلماعةٍ قفر
جرت فوّه الأرواح أمناً لجريه ... وقد كنّ حسرى حين يجري كما تجري
تولّى التدى والبأس والحلم والتقى ... فلم يبق منها بعد عمرٍ وسوى الذّكر
فإن تطوه الأيام لا تطو بعده ... صنائع منه لا تبيد على التشر
متى تلقه لا تلق إلا ممّناً ... حماه، مصون العرض مبتذل الوفير
وأبيّ محلّ لا لكفيه نعمة ... على أهله من أرض برّ ولا بحر
وما اختلفت حالان إلا رأيتّه ... ركوب التي تسبي هبوب التي تزي
ومن تكن الأوراق والتبر ذخره ... فما كان غير الحمد يرغب في ذخر
كلا حالتيه الجود أتى تصرّفت ... به دول الأيام في العسر واليسر
وما علمت يوماً لكفيه أنعم ... تضاف له منها عوان إلى بكر
وما انتسبت إلا إليه صنيعة ... وما نطقت إلا به ألسن الفخر
يرى غبناً يوماً يمرّ وليلة ... عليه ولم يكسب طريقاً من الشكر
تغصّ له الأبصار عند اجتلائه ... وليس به إلا الجلالة من كبر
ترى جهره جهر التقيّ وسره ... إذا ما اختبرت السرّ أتقى من الجهر
ولم يصح من يومٍ ولم يمس ليلة ... بغير اكتساب الحمد مشغل الفكر
وكانت تعمّ الناس نعماء كفه ... فعمّوا عليه بالمصيبة والأجر
تناعاه أقطار البلاد تفجّعا ... لمصرعه تبكيه قطراً إلى قطر
تباشر بطن الأرض أنساً بقربه ... وأضحت عليه وهي خاشعة الظهر
ولم تك تسقى الأرض إلا بسية ... إذا ما جفا أقطارها سبل القطر
إذا نشأت يوماً لكفيه مزنة ... أدبيل الغنى في كلّ فجّ من القفر
هوى جبل الله الذي كان معقلاً ... وعزّاً لدين الله، ذلاً على الكفر

عجبت لأيدي الحنف كيف تغلغت ... إليك وبين التسر بيتك والتسر
وما كنت بالمغضي لدهرٍ على القذى ... ولا لئن للحادثات على القسر
ولو دفع العزّ الحمام عن امريء ... لما نال عمراً للحمام شبا ظفر
ألم تك أسباب الردى طوع كفه ... تبين لصرفي ما يريش وما يبري
إذا صاح داعي الرّوع سار أمامه ... لواءان معقودان بالفتح والتصر
يقسم آجال العدى عزم بأسه ... بهنديّة ييض وخطيّة سمر
وما ذب إلا عن حمى الدّين سيفه ... ولا قاد خيل الله إلا إلى ثغر
وقد كان يقري الحنف أعداء سلمه ... فأضحى قرى ما كان أعداءه يقري
تولّى أبو عمرو فقلنا لنا عمرو ... كفانا طلوع البدر غيوبة البدر
وكان أبو عمرو معاداً حياته ... بعمرو، فلما مات مات أبو عمرو
وكنّا عليه نحذر الدّهر وحده ... فلم يبق ما يخشى عليه من الدّهر
وهوّن وجدي أنّ من عاش بعده ... يلاقي الذي لاقى وإن مدّ في العمر
وهوّن وجدي أنّي لا أرى أمراً ... من التأس إلا وهو مغض على وتر
رمتنا اللبالي فيك يا عمرو بعد ما ... حمدنا بك الدّنيا، بقاصمة الظّهر
سأجزيك شكري ما حييت فإن أمت ... أبقّ ثناءً فيك يبقى إلى الحشر
وأوتر حزني فيك دون تجلدي ... وإسبال دمع لا بكيء ولا نزر

قال أبو العباس: وكان مروان بن أبي الجنوب بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة مداحاً للخلفاء من لدن
المهدي إلى أن قام محمد ولي عهد، ولم يبلغ خلافته. وكان مطبوعاً خطيباً في شعره، صحيح المعاني، قليل
الإغماض صلب الكلام، وأعطاه المهدي فأكثر. وفي ذلك يقول: البسيط
صدقت يا خير مأمولٍ ومنتجعٍ ... ظني بأضعاف ما قد كنت أحسب
أعطيت تسعين ألفاً غير متبعها ... متاً ولست بمئانٍ لما تهب
فلما مات المهدي جزع عليه جزعاً شديداً، ورثاه بأشعار اخترنا منها قوله: الكامل
لو خلّدت بعد الإمام محمّدٍ ... نفسي لما فرحت بطول بقائها
كم قائلٍ لما أتاه نعيه: ... ليت اللبالي آذنت بفنائها
إنّ البلاد غداة أصبح ثاوياً ... كادت تعود جبالها كصفائها
ترك المسامع فقده مستكّة ... وشجا النفوس وحال دون عزائها
فاليوم شاغبت النفوس حرارةً ... كالتار موصدةً على أحشائها
واليوم أظلمت البلاد وربّما ... كشفت بغرّته دجى ظلمائها
واليوم أصبحت الأرامل ولهاً ... تدعو وما ظلمت بطول شقائها
كانت تعود من الشّتاء إذا شتت ... بفنائها وتعيش في أذرائها

وتيت آمنةً لدى حجراته ... كحمام مكةً قطناً وطلبائها
أفنى البكاء على الإمام محمدٍ ... ماء العيون فأستعدت بدمائها
لما استنار بطن مكةً هللكه ... حنّ التراب إليه من بطحائها
فرحت بطون الأرض إذ كسيت به ... نوراً جلا ظلماهما بجلائها
وبكت أمير المؤمنين ظهورها ... إذ غاب زين عشيها وضحائها
كانت خلافته خلافة رحمةٍ ... حتى مضت أيامه لمضائها
ما مرّ من يومٍ عليه وليلةٍ ... إلا تدفق كفه بعطائها
روى الظماء بوادياً وغوادياً ... عفواً بأرشية الندى ودلائها
عمّ الصّحاح بعدله وبعرفه ... وشفى المراض بسيفه من دائها
وصلت جناحي من فواضل سيبه ... سبعون ألفاً راشني بجباها
فلأتبعنّ له المديح مراثياً ... يبقى على المهديّ حسن ثنائها
أثني لأجزيه أيادي عرفه ... عندي ولست ببالغ لجزائها
أقلي الحياة إذا رأيت قصوره ... غبراً خواشع بعد طول بهائها
وجياده قد عرّيت وقيابه ... مخنّلةً عرصاتها لخلائها
فقدت مشرفها الجياد فأصبحت ... تبكيه عند صباحها ومسائها
ففحوهنّ عن الحجور ذواهلٍ ... وحجورهنّ تصدّ عن أفلائها
سقيت على الظمّ القراح لفقدها ... من كان يعرضها على أسمائها
ولقد تراها والحليب صبوحتها ... وغبوقها في قيطانها وشتائها
قلعت لترك ركوبها علمانها ... ولقد ترى ثبناً على أقرائها
القلع: الذي لا يستقر على سرج.
يا من علا شمس النهار لفقده ... رهج القتام فحال دون ضيائها
إنّ القبور قديمها وحديثها ... لصدك فاضلةً على أصدائها
ما حفرةٌ أسنى وأكرم ساكناً ... من حفرةٍ حدروك في أرجائها
إلا التي أمسى النبيّ محمدٌ ... فيها فإنّ لتلك فضل سنائها
يا ليت نفسي قبل نفسك غالها ... ريب المنون فحال دون ثوائها
وبقيت ما بقي النهار لأمةٍ ... ما إن تملّ عليك طول بكائها
فجعت بسيرتك الرعيّة بعدما ... أنسيتها الماضين من خلفائها
ألبستها كنفٍ رؤوفٍ حافظٍ ... حرم الحقوق، موكلٍ بأدائها
يمشي اليتامى في ذراه كأنما ... يأوي المييت بها إلى آبائها
لولا أبئك الكافي الخطوب لأدبرت ... عنّا بقيةً عيشنا برحائها

قال أبو العباس: كتب الحسن بن وهب إلى الأمير محمد ابن عبد الله بن طاهر يعزيه عن مصيبة: بسم الله الرحمن الرحيم، أطال الله بقاء الأمير مسروراً غير مخزون، ومعطى غير، مسلوب، ووقفه في أحواله كلها لما يستديم به النعمة، ويستحق عنده المثوبة. أفضعني أعز الله الأمير ما رأيت بالأمير جعلني الله فداءه من هذه الرزية التي كادت تكون أشبه بالنعم منها بالرزايا، لما وفر الله، إن شاء الله، للأمير أيده الله من ثوابها، وبقي له في نفسه حاطه الله من بعدها. فإن حياة الأمير مد الله في عمره حياة لأهله وذوي تأميله، بعد الذي جعل الله للدين والخلافة من الأئس والعز بسلامته، وللأمة من جيل مكانه وموضعه، ووفر الله للأمير، ولا نقصه وتولاه بحسن المدافعة عنه والحيطة، ولا أراه سوءاً في نفس ولا حميم، بقدرته وهذه جعلت فداء الأمير أبيات ينظر فيها أيده الله عند نشاطه إن شاء الله: مجزوء الكامل

قل للمجير على الدهور ... ومقيل ذي الجد العثور

ولمن يصغر كبره ... مستعظم الخطب الكبير

حتى يرى بعد الجلا ... لة منه في حال الصغير

إن الأمير أجل قد ... رأ في ملّمات الأمور

من أن تفيض دموعه ... لفراق إلف أو عشير

لا، بل يكون مسلماً ... لحكومة الملك القدير

وبيته منه الرضى ... عنه بإخلاص الصمير

والصبر في البلوى فيع ... طى وافيأ أجر الصبور

والشكر في التعمى يغ ... نم ما يضاعف للشكور

فالله ينسى عمره ... في منتهى رتب الحبور

وإذا بكت غزر العيو ... ن فلا بكت عين الأمير

لا بل تبيت قريرة ... أبداً على برد السرور

ماذا بعبدك مذراً ... ك من الكآبة والفتور

عبد يراك ولي نع ... مته إلى يوم التشور

ويراك جابر ما وهى ... من عظمه ذاك الكسير

ويجنّ ودّاً، خبره ... عند العليم به الخبير

قال: وكان الحسن بن وهب يقدم حبيب بن أوس أبا تمام الطائي تقدماً يتجاوز فيه، ولا يرى له في الشعر

نداً قديماً فضلاً عن حديث. فأتاه خبر موته بالموصل فرثاه بشعر سلك فيه مثل طريقه، وترك مذهبه في

السهولة والبيان وألفاظ الكتاب فقال: الوافر

سقى بالموصل القبر الغريباً ... سحائب ينتحبن له نحياً

إذا ظللنه أطلقن فيه ... شعيب المزن تتبعها شعياً

الشعيب: المزايدة التي يحملها البعير.

ولطّمت البروق لها خدوداً ... وشققت الرعود لها جيوبا

فإن تراب ذاك القبر يحوي ... حبيباً كان يدعى لي حبيباً
لبيباً شاعراً فطناً أديباً ... أصيل الرأى في الجلى أريباً
إذا شاهدته روّك فما ... يسرك رقة منه وطيباً
أبا تمام الطائي إننا ... لقينا بعدك العجب العجيباً
فقدنا منك علماً لا نرانا ... نصيب له مدى الدنيا ضريباً
وكت أحاً لنا يدي إينا ... ضمير الودّ والتسب القريباً
وكانت مذحج تطوى علينا ... جميعاً ثم تنشرنا شعوباً
فلما بنت نكرت الليالي ... قريب الدار والأقصى الغربية
وأبدى الدهر أفبح صفحتيه ... ووجهها كالحاً جهماً قطوباً
فأحر بأن يطيب الموت فيه ... وأحر، بعيشة ألا تطيباً
وقال أبو عبد الرحمن العتبي يرثي بنيه: المتقارب
أما يزجر الدهر عنا المنونا ... يبقّي البنات ويفني البنينا
وأنت عليّ بلا رحمة ... فلم تبق فوق غصوني غصونا
وكت أبا سته كالبدر ... وقد همّوا أعين الحاسدينا
فمروا على حادثات المنون ... كمرّ الدراهم بالتأقدينا
فألقين ذاك إلى صارخ ... وألقين ذاك إلى ملحدينا

فما زال ذلك دأب الزّما ... ن حتّى أماتم أجمعينا
وحتّى بكى لي حسّادهم ... وقد أتعبوا بالدموع العيوننا
وحسبك من حادثٍ بامرئ ... ترى حاسديه له راحينا
رأيت بنيّ على ظهرها ... فصاروا إلى بطنها ينقلونا
فمن كان يسليه مرّ السنين ... فحزني تجدده لي السنونا
وقال فيهم: الكامل

يا سته أودعتهم حفر البلى ... لخدودهم تحت الجيوب وساد
منعوا جفوني أن يصفح بعضها ... بعضاً فهنّ وإن قرين بعد
لما بقيت عماد بيت مفرداً ... قد أسلمت أطنابه الأوتاد
لم تبق عينٌ أسعدت ذا عبرة ... إلا بكت حتّى بكى الحساد
ماذا أرجي بعد خمسٍ بعدها ... ستون أكملها لي الميلاد؟
وسطت عليّ من الزّمان يدٌ بها ... فلّ الجميع وغيّب الأولاد
وقال يرثي أخته: الطويل

لقد خانني صبري بأمّ محمّد ... فلم يبق لي إلا التأسّف من جهدي

سوى أن صدري تحته مستكنة من الحزن ما تبقي على الرجل الجلد
وإني مذ اليوم الذي لم أطق به ... عن ابنة أمي مدفعا لعلى وعد
وقال يرثي محمد بن عباد بن حبيب بن المهلب: الطويل
محمد إن آنست مني جانبا ... بقرب لقد أوحشت بالبعد جانبا
وقد عظمت فيك المصائب إنها ... تصغر عندي في سواك المصائب
سلوت به عنن تقدم قبله ... وآليت أصفي بعده الودّ صاحبا
ستيكيك أخلاق المروعة إنها ... مغيبة ما دمت عنهن غائبا
وقال يرثي ابنه سليمان، وكان نفيساً من ولده: الطويل
سليمان والله الذي أنا عبده ... لقلبي عليل ما بقيت حزين
تقاضاك دهر فافتضاك بدينه ... وللدهر في نفسي علي ديون
فقرت عيون كنت شمل جفونها ... وجادت بحزن بالدماء عيون
فليس على دهر مجير إذا عدا ... بكره، ولا خلق عليه معين
دفنت بكفي بعض نفسي فأصبحت ... لها دافن من نفسها ودفين
فله ما أعطى والله ما حوى ... وأحر بأمر كائن سيكون
فيا فجعة الدنيا بمن شبت بعده ... فسيان مضمون به وضنين
وقال يرثي صديقاً له يقال له عيسى بن القاسم: الطويل
بكت عين من لم يك عيسى بن قاسم ... بأربعة حتى تجف نواظره
فتى غاب عنه أقربوه فلم يكن ... له من يحامي دونه ويؤازره
مررت على ريع له بعد موته ... فباطنه يشكو الخراب وظاهره
تكاد مغانيه تقول لفقده ... لسائلها عن أهله: مات عامره
سلام على الإخوان والعيش بعده ... ومن كنت أصفيه الهوى وأعاشره
ومن كان يسلي هم عني حديثه ... إلي إذا ضاقت بأمر مصادره
فإن أسل عن شيء فما عنه سلوة ... ومهما أضيّعه فإني ذاكره
وقال في ابن له يكنى أبا عمرو مات في آخر ولده قصيدة يطيلها، اخترت منها هذه الأبيات: الطويل
لقد شمت الأعداء بي وتغيرت ... عيون أراها بعد موت أبي عمرو
تجراً علي الدهر لما فقدته ... ولو كان حياً لاجترأت على الدهر
أسكان بطن الأرض لو يقبل الفدى ... فديتم وأعطينا بكم ساكني الظهر
فيا ليت من فيها عليها وليت من ... عليها ثوى فيها مقيماً إلى الحشر
فماتوا كأن لم يعرف الموت غيرهم ... فنكل على ثكل وقبر إلى قبر
وقال دعبل بن علي الخزاعي يرثي أبا القاسم نصر بن حمزة: البسيط

كانت خزاعة ملء الأرض ما اتسعت ... فقصّ مرّ الليالي من حواشيها
هذا أبو القاسم الثاوي ببلقعة ... تسفي الرياح عليه من سوافيها

هبت وقد علمت أن لا هبوب به ... وقد تكون حسيراً إذ يجاريها
أضحى قرى للمنايا إذ نزلن به ... وكان في سالف الأيام يقريها
وقال أشجع بن عمرو السلمي يرثي محمد بن منصور: السريع

أنعى فتى الجود إلى الجود ... ما مثل من أنعى بوجود
أنعى فتى أصبح معروفه ... منتسباً في البيض والسود
أنعى إلى الفتیان أعلاهم ... كعباً وأولاهم بتمجيد

أنعى ابن منصور إلى سيّد ... وأيدٍ ليس برعديد
وأشعثٍ يسعى على صبية ... مثل فراخ الطير مجهود
وطارق أعيا عليه القرى ... ومسلم في القدّ مصفود
أنعى فتى مصّ الثرى بعده ... بقية الماء من العود
واتلم المجد به ثلماً ... جانبها ليس بمسدود

أنعى فتى كان ومعروفه ... يملأ ما بين ذرى البيد
فأصبحا بعد تساميهما ... قد جمعا في بطن ملحود

اليوم تخشى عثرات التدى ... وعدوة البخل على الجود
يا راكب العيس التي تختطي ... ما بين أعناق القرايد
إنّ باب البردان الفتى الضّ ... امن حاجات المجاهد
من قنع المسكين لما مضى ... من رغد العيش بتصريد
من لم يكن سائله ممسكاً ... منه بأذنان المواعيد

لا خير في الدنيا وقد أغلقت ... أبوابها دون الفتى المودي

ليرتج البخل عليها فقد ... مضى فتاها بالمقاليد

أورده حوضاً عظيم التأي ... في المجد يوم غير محمود

كل فتى يسعى إلى مدّة ... من أجل قد خطّ معدود

سينطبق الشّعر بأيامه ... على لسان غير معقود

كفأك أنّ المجد قد أصبحت ... أعلامه في بطن أخدود

جودي بدمع أو دم جودي ... يا عين لا عدت بمجلود

فكلّ مفقودٍ إلى جنبه ... وإنّ تغالى غير مفقود

يا وافدي قومهما إنّ من ... طلبتما تحت الجلاميد

طلبتما الجود وقد ضمّه ... محمّد في جوف ملحود

فاتكما بالموت معروفه ... وليس ما فات بمردود
يا عضداً للموت مفتوتةً ... وساعداً ليس بمعضود
أوهن زنديه وأكباهما ... قرع المنايا في الصناديد
وهذا ذا الركن الذي كان بال ... أمس عماداً غير مهدود
؟

باب مواعظ وتعاز وأشعار

قال أبو العباس قد أملينا من أشعار الخدثين جملةً يخاف على مثلها المثل. وإنما كتابنا هذا وإن كان يقصد به معنى واحد فإنما يخرجه شيء من ذلك المعنى إلى آخر منه. فكأنه باب يخالف باباً. وهذا باب مواعظ وتعاز وأشعار داخله في ذلك، موصولة به.

وقد كنا أملينا أخباراً عن عروة بن الزبير في قطع رجله، ومصاب ابنه بضرب دابة إياه. وهذا الذي نذكره مما يتصل بجملة أخباره: قال إسماعيل بن يسار يرثي محمد بن عروة: الخفيف
تلك عرسي راقت سفاهاً فراقني ... وجفتني فما تريد عناقي
زعمت أنما هلاكي مع الما ... ل وأني محالفي إملاقي
وتناست رزيةً بدمشقي ... أشخصت مهجتي فوق التراقي
يوم ندعى إلى ابن عروة نعشاً ... فوق أيدي الرجال والأعناق
مستحقاً به سيقاً إلى القب ... ر وما إن يحتهم من سيق
بمقام ربحٍ فلما أجنوا ... شخصه وارتقوا وليس ثم براق
مكان ربح: إذا كان لا يستقر عليه.
ثم وليت موجعاً قد شجاني ... قرب عهدٍ به وبعد تلاق
ولقد كنت للحتوف عليه ... مشفقاً لو أعاده إشفاعي
فإذا الموت لا يردّ بحرصٍ ... لحريصٍ ولا لرقية راق

؟ وغنينا كابي نويرة يوماً في رخاء ولذة واتفاق
ثم صرنا لفرقة ذات بعدٍ ... كلٍّ حيٍّ مصيره لفراق
وقال أيضاً يرثيه: الكامل
صلّى الإله على أمريءٍ فارقته ... بالشام في حدّ الضريح الملحد
بوأته بيدي دار مقامةٍ ... نائي الخلة عن مزار العود؟
ولئن تركتك يا محمد ثاوياً ... لبما تروح مع الكرام وتغتدي
وغبرت أعوله وقد أسلمته ... لسفى الأماعر والمزار الأبعد
وأرى الوفود لدى المنازل من منى ... شهدوا وإتك غائبٌ لم تشهد

أعني ابن عروة إنه قد هدني ... فقد ابن عروة هله لم تقصد
 والمرء رهن منية يدعى لها ... لا بد أسرع من رداء المرتدي
 وإذا ذهبت إلى العزاء أريده ... غلب العزاء وحيل دون تجلدي
 غلب التعزي أنني لفراقه ... ليس العدو علي جلد الأربد
 وقال البعيث ومات ابن له فقال يرثيه بشعر حفظ منه بيت استحساناً: الطويل
 فصادف مبي غصة لا يسيفها ... شراب ولم يذهب مرارتها العسل
 وأخبرنا عن مخلد بن حمزة عن عبد الملك بن عمير قال: دخل عبد الله ابن الزبير على أمه، أسماء ابنة أبي بكر
 الصديق رضي الله عنهما فقال: يا أمه، قد خذلني الناس، فلم يبق معي إلا من ليس عنده من المنع أكثر من
 صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردت. فما رأيك؟ قالت: يا بني، أنت أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك
 على حق، وإليه تدعو، فامض على حقك، ولا تتمكن غلمان بني أمية من نفسك. فقال: وفقك الله، هذا
 رأيي، وإني لحسن الظن بربي، فإن هلكت فلا يشتد جزعك علي، فإن ابنك لم يتعمد إتيان دنية، ولا عملاً
 بفاحشة، ولم يسع بغدر، ولم يجر في حكم، ولم يكن شيء أثر عنده من رضى ربه. اللهم إني لا أقول هذا
 تركيةً لنفسي. أنت أعلم بي. ولكن أقوله لتسلو عني.
 ويروى أنه خرج فحمل على أهل الشام وهو يتمثل: الطويل
 فلست بمبتاع الحياة بسبة ... ولا مرتقٍ من خشية الموت سلماً
 وقال رحمه الله تعالى: الرجز
 يا أم إن مت فلا تبكيني ... الدرع والبيضة لا تنجيني
 من قدر الله إذا يأتيني ... قد علم الأعبد أن دوبي
 ضرباً كإيزاغ المخاض الجون ... إيهاً شمالي عاوي يميني
 فإن كرهت صحبتي فييني ... فإنما يضمن بالضمنين
 وتحدث عن سفيان بن عيينة قال: رأى سعيد بن جبير ابنه يطوف بالبيت فقال: هذا أعز الخلق علي، وما
 شيء أسر إلي من أن يكون في ميزاني.
 وأخبرنا عن عامر بن حفص قال: جزع القلاخ بن حزن على أخيه جحناء فقال: الطويل
 أعاذل من يرزأ كجحناء لا يزل ... حزينا، ويزهده بعده في العواقب
 ثمال أناسٍ كان يجمع بينهم ... ويدفع عنهم كل أبلخ شاغب
 الأبلخ: المتكبر. وقال ضمرة بن ضمرة: المقارب
 ماوي لست برعديدة ... أبلخ جاد على المعلم
 وقال عن الحسن بن دينار: جزع رجل على ابن له، فشكا ذلك إلى الحسن بن أبي الحسن فقال له الحسن:
 هل كان ابنك هذا يغيب عنك؟ قال: نعم كانت غيبته عني أكثر من حضوره قال: فأنزله غائباً، فإنه لم يغيب
 عنك غيبةً، الأجر لك فيها، أعظم من هذه الغيبة.
 ومن غير هذا الإسناد أنه قال: فأنزله غائباً عنك، فإنه إن لم يقدم عليك قدمت عليه. قال: يا أبا سعيد، قد

هونت من وجددي على ابني.

وأخبرني عن أبي إسماعيل الهمداني عن مجالد عن الشعبي قال: مات ابن لشريح فلم يشعر أحد بموته، ولم يصرخ عليه أحد، فعدا قوم إلى شريح يسألونه عن ابنه فقالوا: كيف أصبح مريضك يا أبا أمية؟ قال: قد سكن عزلته، ورجاه أهله، وما كان منذ اشتكى أسكن منه الساعة.
والعز: شدة القلق.

وقال: أحد بني كليب: البسيط

وإن رأيت سهيلاً ظلت مكتئباً ... كأتني راقبٌ للنجم أو عزز

وأخبر عن أبي عمرو بن يزيد قال: احتضر رجل فوضع رأسه في حجر أخيه، فدمعت عين أخيه فقطرت قطرة من دموعه على خد المريض، فأفاق من غشيته، فظفر إلى أخيه يبكي فقال: الطويل

أخيّن كئنا فرّق الدهر بيننا ... إلى الأمد الأقصى ومن يأمن الدهرا؟

وتحدث عن عمر بن غياث عن محمد بن محمد بن حرب قال: كتب إبراهيم بن أبي يحيى إلى بعض الخلفاء يعزيه: أما بعد. فإن أولى من عرف حق الله عليه فيما أخذ منه، من عظم حق الله جل وعز عنده فيما أبقى له. واعلم أن الماضي قبلك الباقي لك، وأن الباقي بعدك هو المأجور فيك، وأن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عندهم فيما يعافون منه.

وقال عمر بن غياث: عزى رجل قوماً فيهم نصراني فقال: مثلي لا يعزيك، ولكن انظر إلى ما زهد فيه الجاهل فارغب فيه.

قال الأصمعي: حدثني معتمر بن سليمان أن أحمأ له مات، قال: فكنت أرغب إلى الله عز وجل أن أراه في نومي، فذكرت ذلك لشعيب بن الحبحاب فقال: إن الحزن ينضو عن آدم كما ينضو صبغ الثوب، ولو بقي على ابن آدم قتله.

وقال الأصمعي: سمعت بعض الخدثين يقول: نعي مجرأة بن ثور السدوسي إلى أخيه شقيق بن ثور فكأنه لم ير ذلك فيه، فقال له صاحب البريد: هل نعاه إليك أحد قبلي قال: نعم، قد خبرنا الله جل ذكره أنا كلنا سنموت.

وقال الأصمعي: ماتت امرأة عبد الله بن مطرف بن عبد الله بن الشخير، فتنخر ولبس حلة، فقالوا له في ذلك، فقال: أكره أن أستكين للمصيبة.

وقال أبو الحسن المدائني عن سعيد بن عبد العزيز: إن مسلمة بن عبد الملك كان له صديق يقال له شراحيل، فمات، فجزع عليه وخرج فصلى عليه ودخل قبره فلما خرج أنه المعزون، وفيهم عبد الله بن عبد الأعلى، فعزاه، فبكى مسلمة وقال: الطويل

وهون وجددي على شراحيل أنني ... إذا شئت لاقيت امرأة مات صاحبه

وقال القاسم بن الوليد: حدثني أبي، الوليد بن خلف، أن الحجاج بن يوسف أوفد مالك بن أسماء بن خارجة إلى عبد الملك بن مروان فدخل عليه فسمع صوارخ في داره، فقال: ما هذه الصوارخ يا أمير المؤمنين؟

فقال له عبد الملك: مات أبان بن عبد الملك في هذه الليلة، فقال له مالك: آجرك الله يا أمير المؤمنين، فوالله ما على ظهر الأرض أهل بيت أعظم مرزئة واحد على الناس ولا الله أكفى لهم بالواحد الباقي من أنفسهم منكم أهل البيت. فأعجب عبد الملك كلامه، فاستعاده، وفضله على أصحابه. وكان الحجاج لا يستعمل مالكا لإدمانه الشراب واستهتاره فكتب عبد الملك إلى الحجاج: إنك أوفدت إلي رجل أهل العراق فوله واستعمله وأكرمه.

قال أبو الحسن المدائني عن عامر بن الأسود وغيره أن الحجاج رأى في منامه كأن عينيه ذهبتا. فلما طلق هند ابنة أسماء، وهند ابنة المهلب ظن أنهما تأويل رؤياه. فلما مات ابنه محمد وأتاه موت محمد أخيه قال هذا تأويل رؤياي من قبل.

وأخبر المدائني عن أبي محمد بن عمرو الثقيفي قال: لما مات محمد بن الحجاج جزع عليه فقال: إذا غسلتموه فأذنوني به. فأعلموه به فدخل البيت فنظر إليه فقال: الكامل الآن لما كنت أكمل من مشى... وأفترّ نابك عن شياة القارح وتكاملت فيك المروءة كلّها... وأعنت ذلك بالفعال الصالح فقيل له: اتق الله واسترجع، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون وقرأ: الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون.

وأتاه موت محمد بن يوسف وكان بينهما جمعة، فقال: الطويل حسبي حياة الله من كلّ ميّت... وحسبي بقاء الله من كلّ هالك إذا ما لقيت الله ربّي مسلماً... فإنّ نجاة النفس فيما هنالك وجلس الحجاج للمعزين ووضع بين يديه مرآة، وولى الناس ظهره وقعد في مجلسه، فكان ينظر إلى ما يصنعون، فدخل الفرزدق فلما نظر إلى فعل الحجاج تبسم، فلما رأى الحجاج ذلك منه قال: أتضحك وقد هلك الحمدان فأنشأ يقولك الطويل

لئن جزع الحجاج ما من مصيبة... تكون لخزونٍ أجلّ وأوجعا
من المصطفى والمصطفى من خيارهم... جناحيه لما فارقه فودّعا
أحّ كان أغنى أيمن الأرض كلّها... وأغنى ابنه أمر العراقيين أجمعا
جناحا عقاب فارقه كلاهما... ولو قطعاً من غيره لتضعضعا
سمياً نبيّ الله سمّاهما به... أبّ لم يكن عند التّوائب أخضعها

وكتب إليه الوليد يعزّيه عن محمد بن يوسف ويحثه على الصبر فكتب إليه: كتب إلي أمير المؤمنين يعزّيني عن محمد بن يوسف ويذكر رضاه عنه، ويأمري بالصبر، وكيف لا أصبر وقد أبقي الله لي أمير المؤمنين؟. وتحدث المدائني عن يونس بن حبيب قال: كان الحجاج إذا سمع نوحاً في دار هدمها. فلما مات ابنه وأخوه كان يعجبه أن يسمع النوح، وكان يتمثل بشعر الفرزدق: الطويل
هل ابنك إلا من بني الناس فاصبري... فلن يرجع الموتى حين المآتم

قال أبو العباس: حدثني التوزي قال: سمعت أبا زيد ينشد حين المآثم. وكان يتمثل أيضاً بشعر ليزيد بن الحكم الثقفي: الطويل

إن تحتسب تؤجر وإن تبكه تكن ... كباكية لم يحي مبتأ بكأؤها
ومن شرّ حظي مسلم من حميمه ... بكاءً وأحزاناً قليل جدأؤها

وتحدث المدائني عن عوانة قال: أرسل الحجاج إلى علي بن ثابت بن قيس الأنصاري فقال: أنشدني مرثيتك ابنك فأنشده: المنسرح

يا كذّب الله من نعي حسناً ... ليس لتكذيب نعيه ثمن

أجول في الدار لا أراك وفي الدار ... ار أناس جوارهم غبن
كنت خليلي وكت خالصتي ... لكل حي من أهله سكن

بدلتهم منك، ليت أنهم ... أمسوا ويبي وبينهم عدن

فقال الحجاج: ارث ابني محمداً، فرثاه. فقال الحجاج: مرثيتك ابنك أجود. قال: إن قلبي وجد على ابني ما لم يجد على ابنك. قال: كيف كان جبك له؟ قال: لم أمل من النظر إليه، ولم يرغب عني إلا اشتقت إليه قال:

كذاك كنت أجد بابني محمد. وقال الفرزدق: البسيط

إني لبك على ابني يوسف عمري ... ومثل هلكهما للدين يبكي

ماسد حي ولا ميت مسدّهما ... إلا الخلائف من بعد التبين

وقال أيضاً: الكامل

إن الرزية لا رزية مثلها ... فقدان مثل محمد ومحمد

ملكنا قد خلت المنابر منهما ... أخذ المنون عليهما بالمرصد

وأخبر المدائني عن سلمة بن عثمان وغيره أن الحجاج جرع على ابنه محمد، فقبل لرجل من بني عقيل كان الحجاج قتل ابنه: إن الحجاج شديد الجزع على ابنه محمد وقد أته وفاة أخيه محمد بن يوسف، فتمثل

العقيلي: الطويل

ذوقوا كما ذقنا غداة محرق ... من الغيظ في أكبادنا والتحوب

وتحدث المدائني عن إسحاق بن أيوب عن مطير، مولى يزيد قال: كتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج يعزّيه عن أخيه محمد بن يوسف فكتب إليه الحجاج: ما التقيت أنا ومحمد بن يوسف مذ كذا وكذا عاماً،

وما غاب عني غيبة أنا، لطول اللقاء فيها أرجى من غيبته هذه في دار لا نفترق فيها.

وقال ابن كناسة: مات محمد بن الحجاج ونعي محمد بن يوسف في جمعة فخطب الحجاج الناس فقال: إن محمد بن الحجاج ومحمد بن يوسف ماتا في جمعة فكان الباقي منا ومنكم قد فني، وكأن الحي منا ومنكم قد

بلي، وتبادل الأرض منا ومنكم فتأكل من لحومنا كما أكلنا من ثمارها، وتشرب من دمائنا كما شربنا من أثمارها، ولنجدتها كما قال الله تبارك وتعالى ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون.

وقال عوانة بن الحكم: لما مات محمد بن الحجاج وأتاه نعي أخيه بعث إلى مالك ابن أسماء وهو في السجن فقال: أنشدني مرثيتك أخاك فأنشده: الخفيف

أقطع الليل زفرةً ونحيباً ... ولما قد لقيت أمسي كئيباً
أذكر اليأس من بقائك في الدن ... يا وعهداً منا ومنك قريباً
يوم أدعوك للخطوب ولو ... يسمع داعيك من دعا لأجيباً
قال: وأنا، والله، لو أسمعتهما النداء لأجاباً.

وقال إبراهيم بن سعد: سمع علي بن الحسين واعيةً من بيته وهو في مجلسه وعنده جماعة، فنهض إلى منزله فسكتهم ثم خرج إلى مجلسه فقالوا له: أمن حدث كانت الواعية؟ فقال: نعم، ابن لي، فعزوه وتعجبوا من صبره. فقال: إنا أهل بيت نطيع الله جل ذكره فيما نحب ونكره، ونحمده، فإذا نزل مكروه حمدنا واحتسبنا. قال أبو القاسم بن قيس العامري: لما دفن علي بن أبي طالب رحمة الله عليه فاطمة صلوات الله عليها، تمثل عند قبرها: الطويل

وإن افتقادي واحداً بعد واحدٍ ... دليلٌ على ألا يدوم خليل
وتمام هذا الشعر:

ذكرت أبا أروى فبت كآتني ... بردّ الأمور الماضية وکیل
لكل اجتماعٍ من خيلين فرقةً ... وكلّ الذي دون الفراق قليل
وإن افتقادي واحداً بعد واحدٍ ... دليلٌ على ألا يدوم خليل
وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه للأشعث بن قيس وعزاه عن ابن له: يا أشعث، إن تجزع على ابنك فقد استحقت ذلك منك الرحم، وإن تصبر ففي الله الخلف. يا أشعث، إنك إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جرعت جرى عليك القدر وأنت موزور.
وكان علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه يقول إذا عزى: إن تجزعوا فالرحم أهل ذلك منكم، وإن تصبروا ففي ثواب الله خلف من المصيبة. عظم الله أجركم.
وعزى رجل رجلاً عن ابنه فقال: ذهب أبوك وهو أصلك، وذهب ابنك وهو فرعك، فما حال الباقي بعد أصله وفرعه؟ وعزى رجل رجلاً فقال: ما كان لك في الآخرة أجراً خيراً لك مما كان في الدنيا سروراً.
وقال موسى الهادي لإبراهيم بن سلم وعزاه عن ابنه: أيسرك وهو يلية وفتنة، ويجزئك وهو صلاة ورحمة؟
وقال سعيد بن عبد الله: قال الحسن لرجل عزاه عن ابنه: إنما يستوجب على الله وعده من صبر الله بحقه. فلا تجمع، إلى ما أصبت به، الفجيرة بالأجر فإنها أعظم المصيبتين عليك وأنكأ المرزئتين لك.
وقال أبو الحسن المدائني: لما هلك يزيد بن الصعق ورثه معية ابن يزيد قدره وجفنته فقالت ليلة بنت يزيد:

الطويل

يزيد أبا قيسٍ وهل تسمعتَه ... وعندك تعبيرٌ لو أنك تسمع
لأصبح ما جمعت من كل صالحٍ ... معية يعطي الناس منه ويمنع
فلا تأمنن الدهر شيئاً رأيتَه ... ولا أن يسوق الناس عبداً مجدع
وقال سعيد بن قيس المخاربي: الوافر

أبادر قسمة الشَّرَكَاءِ مالي ... إذا حسبوا وهم حولي قعود
وقالوا: حقنا الثلثان منه ... وقد صدقوا لعمرى أو يزيد
تقول عجزهم في ذاك سهمي ... بلى وبسهمك العين الشديد
وكانت قبل تملكه جميعاً ... تعني باليدين كما تريد
وقالت أختها بنت طلق الجشمية، من بني تيم اللات بن ثعلبة في الإسلام، وجاء العصابة يقتسمون دارها التي
كانت لزوجها، فسمعت أصواتهم فقالت: السريع
يا دعوة ما دعوتني عامراً ... بالله لو يسمعي لاستجاب
تالله لو يسمع دعواهم ... لقلهم عني بظفر وناب
فرجعوا عنها وغبروا حيناً ثم عادوا، فقالت: الطويل
لقد بدلت دار الأخت بعدهم ... موالي منهم ملحقون وتابع
فلو أن داراً أعولت فقد أهلها ... بكت دارنا والتح منها المسامع
فرجعوا فمكثوا ثم عادوا، فقالت: مجزوء الكامل
الدار تبكي أهلها ... وبكاؤها شيء عجيب
فيقال: إنهم تركوها لها.

قال المدائني: توفي ابن خالد بن صفوان يكنى أبا الحصين فقال: رحم الله أبا الحصين. والله إن كان، ما
علمته، لبراً بوالديه، وصولاً لرحمه بعيداً مما يقرب به الشبان.
قال أبو العباس: وحدثت بهذا الخبر على غير هذا. إنه توفي ابن له يقال له نعيم فقال: لا أنسى نعيماً أبداً.
وفي هذا الخبر: ولقد ذكرت عند موته قول الشاعر يعني أبا خراش الهذلي: الطويل
فوالله لا أنسى قتيلاً رزئته ... بجانب قوسى ما مشيت على الأرض
ثم علم أنه سينساه فقال:

بلى إنَّها تعفو الكلوم وإنَّما ... نوكل بالأدين وإنَّ جلَّ ما يمضي
وقال أبو الحسن في أخبار الطاعون: الذي بلغنا من خبر الطاعون أن الناس لا يجزعون فيه على موتاهم
كجزعهم في غير الطاعون، وذلك لتأسي الناس بعضهم ببعض، ولما يدخلهم من الخوف، فكل إنسان يخاف
على نفسه فيسلو عن الولد والأهل والقراة.
وقال: وكانت الطواعين المشهورة العظام في الإسلام بالعراق خمسة: طاعون شيرويه بالمدائن في سنة ست من
الهجرة.

والطاعون الجارف سنة تسع وسبعين في شوال. هلك في ثلاثة أيام في كل يوم سبعون ألفاً. مات لأنس بن
مالك فيه ثلاثة وثمانون ابناً ويقال: وسبعون. ومات لعبد الرحمن بن أبي بكره أربعون ابناً، وهرب عبيد الله
بن عمير، مات له ثلاثون ابناً، وإنما هرب بهم من الطاعون. وقال البراء المازني: مات في الطاعون لصدقة بن
عامر المازني سبعة بنين في يوم واحد، فدخل، فوجدهم قد سجوا جميعاً، فقال: اللهم، إني مسلم مسلم.

وقال محمد أبو عبد الله التميمي: هرب المرقع بن العلاء، أحد بني ربيعة ابن مالك بن زيد مناة، من الطاعون، وله اثنا عشر ابناً، فماتوا جميعاً، فدفنهم في سفح سنام فرثاهم فقال: الوافر

دفنت الدافعين الصّيم عني ... براية مجاورة سناما

أقول إذا ذكرتم جميعاً ... بنفسي تلك أصداءً وهاما

فليت حمامهم إذ فارقونا ... تلقانا وكان لنا حماما

فلم أر مثلهم هلكوا جميعاً ... ولم أر مثل هذا العام عاماً

قال: أنشدني الرياشي ثلاثة أبيات منها ولم ينشدني الرابع.

وقال علي بن القاسم: حدثني رجل قال: رأيت في المنام أيام الطاعون كأنه أخرجت من داري اثنا عشرة جنازة وأنا وعيالي اثنا عشر، فمات منا أحد عشر وبقيت وحدي، فقلت في نفسي: أنا تمام العدة، فخرجت من الدار ثم رجعت من غد إليها فإذا لص قد دخل للسرقة فطعن في الدار فمات، فأخرجنا جنازته. قال أبو الحسن: بلغني أن رجلاً نبش في الطاعون قبراً فأخرج الميت من قبره وأخذ ثيابه فطعن من ساعته فمات فوجد والثياب معه.

وقال سليمان بن قحذم: خرجت في الطاعون الجارف إلى مكة، ودارنا مشحونة، فرجعت وقد خلت، فقال لي أبي: يا بني، ما بقي في الدار أحد ممن تركت غيري وغير أمي جدتك.

وقال معاذ التمار: بلغني أن دوراً كثيرة مات أهلها. فلما قدم الحجاج هدمها مخافة أن يكمن فيها الخوارج، واشترى الناس دوراً كثيرة فدفنوا فيها.

قال: بلغني أن داراً مات أهلها جميعاً، أغلقوا بابها وفيها صبي صغير رضيع لم يعلموا به، فلما خف الطاعون

فتحوا الباب بعد أشهر فإذا صبي يحبو، فتعجبوا منه، فإذا كلبة تطفر إلى الدار فتربض ناحية ويحبو إليها

الصبي فيشرب من أطبائها ثم تطفر الحائط إلى خارج. فلم يزل ذلك دأب الصبي حتى حبا حبواً.

قال: وأخبرت أن الدار كانت تصبح وفيها خمسون، وتصبح الغد وليس فيها واحد.

قال: وكان الرجل بعد الطاعون يلقي المرأة، فلو شاء أن يغصبها نفسها فعل قبل أن يمر أحد.

ثم خف الطاعون وخليفة مصعب بن الزبير على البصرة سنان بن سلمة الهذلي فخطب الناس فقال: اتقوا الله أيها الناس فإن عند الله أياماً مثل شوال. قال وكان طاعون القينات في شوال سنة سبع وثمانين، مات فيه الجوارى.

ثم كان طاعون سنة إحدى وثلاثين ومئة في رجب فاشتد في شهر رمضان فكان يحصى في سكة المربد في كل يوم عشرة آلاف جنازة، أياماً، وخف في شوال.

وقال طارق: أخبرني رجل قال: تزوجت امرأة فدخلت بها ليلة الاثنين، وأصبحت غادياً من عندهم وهي

عند أبيها وأمها وأختها وخادمهم، فعدت إليهم يوم الجمعة فلم يبق منهم أحد.

وهرب من الطاعون علي بن زيد بن جدعان إلى السبالة، وكان يجمع كل جمعة ويرجع. فكان إذا جمع

صاحوا به: فر من الطاعون، فطعن فمات بالسبالة وهرب عمرو بن عبيد ورباط بن محمد بن رباط إلى

الرباطية فقال إبراهيم بن علي بن عبد الرحمن الفقيمي: الطويل

لما استنفر الموت كل مكذب ... صبرت، ولم يصبر رباط ولا عمرو
ورأى نافع رجلاً قد خرج من البصرة على حمار فرقاً من الطاعون، وكان نافع يعرفه فقال: انظروا يفر من
الله على حمار.

وكان ابن شبل بن معبد البجلي بشيراز فمات أهله بالطاعون فبلغه، فجزع عليهم فقال: الطويل
سما لك في شيراز هم فلم تنم ... غريباً كما بعض الرجال غريب
برتني صروف الدهر من كل جانب ... كما ينبري دون اللحاء عسيب
أقول لأصحابي وقد قذفت بنا ... نوى غربة عمّن نحب شطوب
متى العهد بالأهل الذين تركتهم ... لهم من فؤادي بالعراق نصيب
وهل ترك الطاعون لي من قرابة ... إليه إذا كان الإياب أوروب ؟

وكنا نرجي أن نصير إليهم ... فغالتهم من دون ذلك شعوب
مقادير لا يغفلن من كان يومه ... لهنّ على كل الأنام رقيب
سقين بكأس الموت من قد أصبته ... وللحي من أنفاسهنّ ذنوب
فقد أصبحوا لا دارهم منك غربة ... بعيداً ولا هم في الحياة قريب
وهون عتي بعض وجدي آتني ... رأيت المنايا تغتدي وتثوب
وآتي رأيت الناس أفنى كرامهم ... حودث، كل العالمين نصيب
وما نحن إلا منهم غير أننا ... إلى أجل ندعى له فنجيب
وقال أبو عبد الرحمن العجلاني عن سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت قال: هلك في طاعون عمواس
من آل الوليد بن المغيرة عشرون فتى، ومن آل صخر مثلهم. فقال رجل منهم: السريع
من ينزل الشّام ويعرس به ... فالشّام إن لم يفننا كارب
يقول: إن لم يفننا فهو يقارب ذلك. يقال: كرب الشيء يكرّب إذا قرب.
أفنى بني صخر وفرسانهم ... عشرين لم يطرر لهم شارب
ومن بني أعمامهم مثلهم ... لمثل هذا العجب العاجب
طعننا وطاعونا مناياهم ... ذلك ما خطّ لنا الكاتب
واستشهد بالشّام من بني المغيرة سبعة وسبعون رجلاً في وقعة، فقال خالد بن الوليد بنفسه أنتم زعم ابن
حنتمة يعني عمر بن الخطاب رحمه الله أن بني المغيرة لا يستشهدون.

وقال المدائني: كان بالكوفة طاعون سنة خمسين، فقال المغيرة بن شعبة لأبي موسى: انطلق بنا. فخرج إلى
دابق من الطاعون فقال أبو موسى: إلى الله أبق لا إلى دابق، فخرج المغيرة. فلما خرج خف الطاعون فقيل
له: لو رجعت إلى أهلك ! قال: ما يريدون مني ؟ فلم يزالوا به حتى أقبل إلى الكوفة، فقال: كأنكم
بالطاعون قد خلتني في خصاص بني عوف، فطعن فمات. واستخلف على الكوفة جرير بن عبد الله البجلي
وقال أبو إسماعيل عن مجالد عن الشعبي أن صديقاً لشريح خرج هارباً من الطاعون، فأقام بالنجف فكتب

إليه شريح: إن المكان الذي أنت به بعين من لا يفوته طلب، ولا يعجزه هرب، والمكان الذي خلفت لا يعجل امرءاً إلى حمامه قبل أجله، ولا يظلمه أيامه، وأنت وهم على بساط واحد، وإن النجفة من ذي القدرة لقريب.

وقال أبو عاصم من ولد عباد بن زياد: كانت الطواعين بالشام كثيرةً وكانت الخلفاء وأبناء الخلفاء يتبدون ويهربون من الريف فينزلون البرية خوفاً من الطاعون. فلما أراد هشام بن عبد الملك أن ينزل الرصافة قيل له: يا أمير المؤمنين، لا تجرع فإن الخلفاء لا يطعون، ولم نسمع بخليفة طعن ولم نره. قال: أتريدون أن تجربوا في؟ فتحول فنزل الرصافة وهي برية، وبني فيها قصرين.

قال: وكان عبد العزيز بن الوليد ينزل أسيساً فقدم على أبيه بدمشق غلام للوليد فقال الوليد لابنه عبد العزيز: يا بني، ارجع إلى منزلك. قال: أبيت الليلة ثم أغدو. قال عزمت عليك إلا رجعت. فرجع ولم يدعه يبيت قال أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء: إن رجلاً من أهل البصرة أيام الطاعون الجارف لما رآه قد كثر أراد الهرب، فعمد إلى حمار له فجعل عليه متاعه، وغلام له يناوله جهازه، والغلام يرتجز: مشطور الرجز لن يبق الله على حمار... ولا على ذي ميعه مطار
قد يصيح الله أمام الساري

فقال له الرجل: صدقت. ثم حط رحله وأقام، فمات فيمن مات.

قال المدائني: قال الحسن البصري وذكر عنده الطاعون: ما أحسن ما أبلى الله فيه: ارتدع مذنب، وأنفق ممسك، ولم يغلط بأحد.

وقال أبو الحسن المدائني عن جناب بن موسى عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: لما احتضر رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام فخيره بين البقاء في الدنيا وبين المصير إلى رحمة الله أو رفعه إليه وتعجيل ما وعده فقال صلى الله عليه وسلم: بل الرفيق الأعلى. فكان يقول ذلك حتى قضى، صلوات الله عليه ورحمته وبركاته.

وأخبر المدائني عن شعبة عن سعيد بن إبراهيم عن عروة عن عائشة، رحمها الله، قالت: كنت أسمع أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يموت حتى يخير، فسمعتة يقول صلى الله عليه وسلم في مرضه: الرفيق الأعلى، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فظننت أنه خير فاختر الآخرة.

وقال خلاد بن عبيدة عن علي بن زيد عن الحسن قال: قيل لأبي بكر في مرضه: لو أرسلت إلى الطبيب! فقال: قد رأيت. قالوا: فما قال لك؟ قال: قال: إني فعال لما أريد. وفي رواية: إني أفعل ما أشاء.

وقال: أبو محمد الناجي عن الحسن: إن أبا بكر، رحمه الله، سمع عائشة رضي الله عنها وهو في سكرات الموت، وهي تقول: الطويل

لعمرك ما يغني الشراء عن الفتى... إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فقال: يا بنية: ألا قلت وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد وقال متمثلاً: مخلع البسيط

وكلّ ذي إبلٍ مورثها... وكلّ ذي سلبٍ مسلوب

وكلّ ذي غيبة يؤوب ... وغائب الموت لا يؤوب

وآخر ما تكلم به: رب توفي مسلماً وألحقني بال صالحين وقال أبو بلال الأشعري عن محمد بن عاصم الأسلمي عن موسى بن عقبة المزني قال: كتب أبو بكر، رحمة الله عليه، وصيته بيده وهي: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به أبو بكر الصديق عند آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها حيث، يؤمن الكافر، ويتقي الفاجر، ويصدق الكاذب. إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فاسمعوا له وأطيعوا. فإن عدل فذلك ظني به ورأيي فيه. وإن جار وبدل فلا أعلم الغيب، والخير أردت، ولكل امرئ ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

وقال عمر بن غياث عن الهلالي: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أفرطت عليه الحمى في وجعه الذي توفي فيه قالت فاطمة: يا أبني وأمي. ثم تمثلت: الطويل

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

قال: فأفاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ذلك قول عمك أبي طالب. ثم قال صلى الله عليه وسلم: وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل الآية.

قال أبو الحسن عن عاصم بن عمر عن عبيد الله بن عمرو عن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده أن كعب الأبحار قال لعمر بن الخطاب رحمه الله: يا أمير المؤمنين، أنت ميت في ثلاث، أجد ذلك في بعض الكتب.

قال: أتجد اسمي ونسبي؟ قال: لا، ولكن أجد صفتك وسيرتك وزمانك، فقال عمر: الطويل

توعدني كعب ثلاثاً يعدّها ... ولا شك أن القول ما قال لي كعب

وما بي خوف الموت إنّي لميتّ ... ولكنّ خوف الذنب يتبعه الذنب

وقال هشام بن عاصم عن الشعبي أن عمر بن الخطاب رحمه الله عليه قال عند موته: ليتني أنجو من هذا الأمر كفافاً لا لي ولا علي. يا عبد الله، ضع خدي على الأرض، ويل لعمر ولأم عمر إن لم ينجه الله.

وقال الأصمعي لما طعن العليّ ملحقاً كانت عليه وقال: يا لله للمسلمين! وقال الأصمعي أيضاً: لما طعن العليّ عمر قال: وكان أمر الله قلراً مقدوراً.

وقال سعيد بن مسلم عن أبيه أن عثمان بن عفان رحمه الله يوم دخل عليه فقتل، دعا بالمصحف فنشره،

فكان أول حرف نظر إليه: فسيفكفيهم الله وهو السميع العليم، وتمثلت: الطويل

أرى الموت لا يبقى عزيزاً ولم يدع ... لعاد ملاكاً في الأمور ومرتباً

بيت أهل الحصن والحصن مغلق ... ويأتي الجبال من شماريخها العلا

وقال أبو الحسن عن سعيد بن عبد العزيز السلمي عن أبيه أن الزبير رحمه الله قال حين طعنه ابن جرموز: ما له قاتله الله يذكر بالله وينساه! وذلك أن الزبير رحمه الله لما رآه هم به، فقال له ابن جرموز: أذكرك الله،

فتركه ثم تغفله فطعنه. وتمثلت الزبير: الكامل

ولقد علمت لو أن علمي نفعي ... أن الحياة من الممات قريب

وقال طلحة بن عبيد الله رحمه الله يوم الجمل عند موته: مجزوء الكامل

صرف الزبير جواده ... أتى لتلركه وفاته

ثم قال حين نزل به الموت: تالله ما رأيت كاليوم مصرع أسد أضيع، وتمثل: الطويل
أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى ... بعيداً غداً ما أقرب اليوم من غد
وقال يعقوب بن داود الثقفي عن الحسين بن بزيغ: إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رحمه الله خرج في
الليلة التي ضرب فيها في السحر وهو يقول: الهزج
اشدد حيازيمك للموت ... فإن الموت لا يقيكا
ولا تجزع من الموت ... إذا حلّ بواديكا

وضربه ابن ملجم، فقال: ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، والله رؤوف بالعباد. وقال علي
حين ضرب: فزت ورب الكعبة. وكان آخر ما تكلم به أن قال: فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل
مثقال ذرة شراً يره.

وقال أبو الحسن عن علي بن مجاهد عن عبد الأعلى بن ميمون بن مهران عن أبيه: إن معاوية قال في مرضه
الذي مات فيه: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كساني قميصاً فرفعت. وقلم أظفاره يوماً فأخذت
قلامتها فجعلتها في قارورة فإذا مت فألبسوني ذلك القميص وقطعوا تلك القلامة واسحقوها وذروها في
عيني وفمي ثم أغمي عليه، فقالت ابنته أو امرأة من أهله متمثلة: الطويل
إن مات مات الجود واقطع التدى ... من التأس إلا من قليل مصرّد
وردت أكف السائلين وأمسكوا ... من الدّين والدنيا بخلف مجدّد
ثم أفاق فقال لمن حضره من أهله: اتقوا الله فإن الله يقي من اتقاه، ولا واقية لمن لا يتقي الله.
وقال عوانة: لما حضرت معاوية الوفاة قال: يوم من ابن الأدبر طويل! ثم تمثل: البسيط
لقد جمعت لكم من جمع ذي حسب ... وقد كفتكم الترحال والنصبا
ثم قال: إنكم لتقلبون حولاً قلباً، إن نجا من كبة النار فهو الرجل.
وفي غير هذا الإسناد أنه قال حين احتضر لابنة قرظة: انديني فقالت: الهزج
ألا أبكيه ألا أبكيه ... ألا كلّ الفتى فيه

وقال لابنته: قلباني، ففعلنا. فقال: إنكما لتقلبانه حولاً قلباً إن وفي كبة النار. ثم تمثل: الكامل
لا يبعدن ربيعة بن مكرم ... وسقى الغواصي قبره بذنوب
وقال سعيد بن بشر: إن عبد الملك بن مروان ليلة قبض قلق فسمع صوت قصار فقال: ما هذا؟ فأخبر،
فقال حين ثقل: ليتني كنت غالاً أعيش بما أكتسب يوماً بيوم. فقيل لأبي حازم: إن عبد الملك قال كذا
وكذا. فقال: الحمد لله الذي جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه، ولا تمنى ما هم فيه.
وقال عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه أن سليمان بن عبد الملك قال عند الموت متمثلاً بقول الحارث بن

عباد: الرجز

إنّ بني صبيّة صغار ... أفلح من كان له كبار
إنّ بني غلمة صفيون ... أفلح من كان له ربعيون

فقال له عمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى. فقأها، ثم قال: أسألك منقلباً كريماً. ثم قضى وقال مسلم بن خالد عن ابن أبي نجيح: تأوه طاوس في مرضه الذي مات فيه، فقيل له: يا أبا عبد الرحمن، شكوت ربك فقال: ليتني أخرج من مرضي هذا لا علي ولا لي. وقال محمد بن جعفر عن أبيه: دخلت على عبد الرحمن بن الفضل ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب في مرضه فبكى وقال: أبكي لصبيات خلف هذا السرير، لولاهن هان علي الموت. إني لمؤمن، وإني لثائب، وإن الله لغفور رحيم. قلت: رحمك الله فالذي رجوته لمغفرة ذنبك فارجه لخير بناتك. فقال: صدقت، جزاك الله خيراً.

وقال أبو الحسن عن معاوية بن محمد عن عبد الله بن بجير قال: قال عبد الله بن عمرو بن العاصي لأبيه: يا أبة، كنت تقول: ليتني ألقى رجلاً عاقلاً عند نزول الموت به يحدثنى ما يجد. وقد نزل بك وأنت ذلك الرجل فصفت لي الذي تجد. قال: يا بني لكأن جبي في تحت ولكأنى أتففس من سم إبرة، ولكأن غصن شوك يجرب به من قدمي إلى هامتي. ثم قال متمثلاً قول أمية بن أبي الصلت: الخفيف ليتني كنت قبل ما قد بدا لي ... في رؤوس الجبال أرى الوعولا والله ليتني كنت حيضةً عركها الإمام. ثم مد يده فقال: اللهم، إني لست ذا قوة فأنتصر، ولا ذا براءة فأعتذر. اللهم إني مقر مذنب مستغفر.

وقال عوانة: قال عمرو بن العاصي عند موته: اللهم، إنك أمرتنا فلم نأتمر، وزجرتنا فلم ننزجر، فإنا لا نعتذر، ولكننا نستغفر.

وقال يعقوب بن عوف بن عبد الملك بن نوفل: لما نزل بالمغيرة بن شعبة الموت قال: اللهم، هذه يدي بايعت بها نبيك صلى الله عليه وسلم، وجاهدت في سبيلك، فاعفر لي ما يعلمون من ذنوبي وما لا يعلمون. وقال أبو الحسن عن مسلمة بن محارب: لما ثقل زياد قدم عليه الهيثم بن الأسود النخعي بعهدده على الحجاز، فقيل له، فقال: شربة من ماء أسيغها أجد طعمها أحب إلي مما جاء به الهيثم.

وقال علي بن مجاهد عن محمد بن إسحاق عن الزهري قال أبو العباس وحدثني ببعض هذا الحديث وزاد عليه شيئاً العباس بن الفرج الرياشي قال: أغمي على أمية بن أبي الصلت في مرضه الذي مات فيه، وهو يقول: لييكما لييكما، هأنذا لديكما، لا بريء فأعتذر، ولا ذو قوة فأنتصر. ثم أغمي عليه ثم أفاق وهو يقول: لييكما لييكما، هأنذا لديكما، لا مال يفديني، ولا عشية تحميني. وأغمي عليه ثم أفاق وهو يقول:

لييكما لييكما، هأنذا لديكما، محفوف بالنعيم: الرجز

إن تغفر اللهم تغفر جمًّا ... وأي عبد لك لا أماً؟!

ثم قال: الخفيف

كلّ عيش وإن تناول يوماً ... قصره مرّة إلى أن يزولا

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي ... في رؤوس الجبال أرى الوعولا

اجعل الموت نصب عينيك واحذر ... غولة الدّهر إن للدّهر غولا

قال أبو الحسن عن إسحاق بن أيوب: إن عبد الله بن عبد الملك بن مروان لما نزل به الموت بشر بقدم مال له كثير كان له بمصر، فقال: مالي وله ! ليته كان بعرأ حائلاً بنجد.

وقال عوانة: قال نافع بن علقمة حين حضر: ليت القرابة التي كانت بيني وبين مروان كانت بيني وبين رجل من الزنج، ولم أدخل في شيء من هذا الأمر.

وقال أبو الحسن عن الحسن بن دينار: كان الحسن البصري يغمى عليه ثم يفيق فيقول: ساعة صبر واحتساب وتسليم لأمر الله عز وجل حتى مات.

قال: وكان محمد بن سيرين يقول وهو في الموت: في سبيل الله نفسي أعز الأنفس علي، حتى هلك.

وقال يحيى بن زكريا عن أبيه إن الشعبي قال وهو بالموت: اشهدوا أنني قد احتسبت نفسي عند الله تعالى.

وقال قيس بن الربيع: بلغني أن إبراهيم النخعي بكى عند الموت فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ولم لا أبكي؟ وإنما أنتظر مبشراً يبشرني بالجنة أو بالنار. والله لوددت أنها تجلجل في صدري إلى يوم البعث.

وقال حفص بن ميمون عن يونس وغيره عن الحسن أنه قال: إذا كان يوم القيامة قيل لمن كان يحدث

بالرخص: لم حدثتم عبادي بالرخص قالوا: سمعناك تذكر أن رحمتي وسعت كل شيء، وأنتك تغفر الذنوب

غير الشرك، فحدثناهم ليشكروك ولا يقنطوا من رحمتك. فيقول لهم: قد جعلت ثوابكم على ذلك الجنة.

وقال أبو الحسن: بلغني أن سليمان التيمي قال لابنه وهو بالموت: يا بني، حدثني بالرخص حتى ألقى الله وأنا له راج.

وقال أبو الحسن عن أبي محمد الناجي قال: قال حذيفة وهو بالموت: حبيب جاء على ناقة، لا أفلح من ندم. الحمد لله الذي سبق بي الفتن. أليس بين يدي ما أعلم.

وقال النضر بن إسحاق: قيل للحسن: إن الحجاج قال عند الموت: اللهم، إن هؤلاء يرعمون أنك لا تغفر

لي. اللهم، فاغفر لي ذنوبي، فإنها صغيرة في في جب عفوك. فقال الحسن: أقالها؟ قالوا: نعم. قال: عسى !

وقال أبو الحسن عن مسلمة بن محارب قال: قال مسلمة بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز: أوص إلي ببنيك

أو: ألا توصي إلي ببنيك فقال: أوصي بهم إلى الذي نزل الكتاب، وهو يتولى الصالحين ونظر إلى ولده فقال:

بنفسي فنية أفقرتهم من هذا المال، ثم قال: ونعم المذهب إليه ربي. وقرأ قارئاً من ناحية البيت، تلك الدار

الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، والعاقبة للمتقين. فقالتا عمر ثم قضى.

قال عوانة: قال الوليد بن عقبة عند الموت وهو بالبليخ من أرض الجزيرة: اللهم، إن كان أهل الكوفة

صدقوا علي، فلا تلق روعي منك روحاً ولا ريحاناً، وإن كانوا كذبوا علي فلا ترضهم بأمر، ولا ترض

أميراً عنهم، وانتقم لي منهم واجعله كفارة لما لا يعلمون من ذنوبي.

قال أبو الحسن عن علي بن سليمان: دخل عمر بن عبد العزيز على رجل وهو يجود بنفسه، فقال له:

استغفر الله، فقيل له: يا أبا حفص، لو لقتنه شهادة أن لا إله إلا الله، فقال عمر: إن لا إله إلا الله من ذنبي،

وله ذنوب يستغفر الله منها، فإذا استغفر الله فقد وحده، وإن المستغفر الخائف بعرض خير.

تفكر فإن كان البكا ردّ هالكاً ... على أحدٍ فاجهد بكاك على عمرو
ولا تبك ميتاً بعد ميتٍ أجنّه ... عليّ وعبّاسٍ وآل أبي بكر
قال: وهلك أخ لبعض الأعراب فأظهر له الشمّاتة بعض بني عمه، فأنشأ الأعرابي يقول: الكامل
ولقد أقول لذي الشمّاتة إذ رأى ... جزعي، ومن يذق الفجيجة يجزع
اشمت فقد قرع الحوادث مروتي ... وافرح بمروتك التي لم تقرع
إن تبق تفجع بالأحبة كلّهم ... أو تردك الأحداث إن لم تفجع
قال: ومات بنون لا مرأة تباعاً فكلمناها، فحدثتنا ساعة ثم ضحكت، فقالت لها امرأة: أتضحكين! أجنون
بك أم فند ! قالت: لا، وأبيك، ولكن الشر لم يجد لي مزيداً.
قال أبو الحسن المدائني: وأنشد ابن كناسة: الطويل
لا تجزعي يا أمّ زيدٍ فإنه ... ستأتي المنايا كلّ حافٍ وذوي نعل
فلولا الأسي ما بت في الناس ليلةً ... ولكن إذا ما شئت جاوبني مثلي

وقال محمد بن كناسة عن خشاف الفقعسي قال: حدثني أمي قالت: دخلت علينا عجوز للحي اسمها بادية
ورحال إخوتي ثمانية في جانب البيت فقالت لي لمن هذه الرحال؟ أنزل بكم الليلة ركب؟ قلت: هذه رحال
إخوتي. فقالت: لقد ولدت لك أمك حزناً طويلاً. قالت: وصدقت بادية، ذهبت نفسي عليهم قطعاً.
وأنشدت: الكامل

ذهبوا بنفسي أنفساً إذ فارقوا ... فالعيش بعد منعصٍ مذموم
وقال عمر بن غياث: أخبرني الثقة قال: دفن أعرابي ابنا له، فلما أجنه وقف على قبره وأنشأ يقول: الكامل
لما مشى ورجوته لغدٍ ... وطمعت أن يقوى به أزري
ويكون من أعمامه خلفاً ... فيقول بعد تأطرٍ ظهري
رشقته عن قوسٍ منيته ... فغدا رهينة مظلم القعر
قد كان يضرب من مضى مثلاً ... وجد التّكول وكنت لا أدري
ما ذاك حتّى ذقت لوعته ... فألذّ منها لوعة الصّبر

وخرج رجل مع خالد بن الوليد بدومة الجندل، فاستشهد فجزع عليه أبوه فبكاه حتى كثر عليه بكاؤه،
فليم في ذلك وعوتب، فقال: دعوني أبكي عليه ما أسعدتني عيني، فإن دموعها ستنفد وتبلى كما ذهب نافع
وبلي. وقال يرثيه: الكامل

ما بال عيني لا تغمّض ساعةً ... إلّا اعترتني عبرةٌ تغشاني
أرعى نجوم الليل عند طلوعها ... وهناً وهنّ من الغيار دوان
يا نافعاً من للفوارس أحجمت ... عن شدّة مذكورةٍ وطعان؟
فلو أستطيع جعلت منّي نافعاً ... بين اللّهاة وبين عكد لساني
يا نافعاً من للفوارس إذ ثورا ... في يوم بؤسٍ أو ليوم ليان؟

قال أبو الحسن: حدثني كليب بن خلف عن إدريس بن حنظلة قال: أصيب عمرو بن كعب النهدي بتستر مع مجزأة بن ثور فكتموا أباه الخبر ثم علم بعد فلم يجزع وقال: الحمد لله الذي جعل من صليبي من أصيب شهيداً وقال: الوافر

فهل تعدو المقادر يا قومي ... هلاك المال أو فقد الرجال !؟

فكلاً قد لقيت وقلبتني ... صروف الدهر حالاً بعد حال

فما أبقين مني غير نضو ... به أثر الرحالة والحبال

عروف كلما جلبت قروح ... به نكمت بأعدال تقال

ثم استشهد ابن له آخر يقال له حمل مع سعيد بن العاصي بجرجان فبلغه فقال: الحمد لله الذي توفي مني شهيداً. وقال: الطويل

جزى حملاً جازي العباد كرامة ... وعمرو بن كعب خير ما كان جازياً

خليلي وابني اللذين تابعا ... شهيدين كانا عصمتي ورجائيا

ومن يعطه الله الشهادة يعطه ... بها شرفاً يوم القيامة عالياً

وقال محمد بن كناسة: زوج زبان بن منصور الحسن بن علي بن أبي طالب خولة ابنة زبان، فمكنت عنده حولاً لا تكتحل ولا تدهن حتى وضعت له ابناً، فاكثحت وتهيأت له: فقال لها الحسن: ما حملك على ما صنعت؟ فقالت: كرهت أن تقول النساء: احتفلت فلم تصنع شيئاً. فأما إذ جاء هذا فما أبالي ما كان.

فقال لها الحسن: وأبأي أنت! فلما مات الحسن اشتد جزعها عليه، فقال زبان: الكامل

نبئت خولة أمس قد جزعت ... من أن تنوب نوابب الدهر

لا تجزي يا خول واصطبري ... إن الكرام بنوا على الصبر

قال: وحدثني رجل من بجيلة عن امرأة من بني العنبر يقال لها مهدية، قال: وكان لها بنون وإخوة فهلكوا حتى بقي لها ابن فمات فقالت: الوافر

أمنجاب الأكارم من لركب ... أناخوا جنباً ودنوا أصيلاً؟

أمنجاب الأكارم عد إلينا ... لكي نشفي برؤيتك الغليلاً

كأنك لم تقل للركب سيروا ... ولم ترحل عذافرة ذمولا

وقال عن علي بن سليمان عن الحسن قال: الخير الذي لا شر فيه الشكر مع العافية، والصبر عند المصيبة. فكم من منعم عليه غير شاكر، ومبتلى غير صابر.

وقال أبو الحسن: قال جهم بن حسان: بلغني أن توسعة بن أبي عتيان جزع على أخيه عتبة فقال ييكيه: الكامل

منع الرقاد تحوي ما أهجع ... ونبا بجني عن فراشي مضجع

أعتيب قد كنت امرءاً لي جانب ... حتى رزئتك والجدود تضعضع

فلمن أقول إذا تلم ملمة ... أرني برأيك أم إلى من أفرع !؟

قد كنت أنظر في المقامة سادراً ... فظرت قصدي واستقام الأخذع
وفقدت إخواني الذين بقرهم ... أعطي الدّية من أشياء وأمنع
نعم الفتى من آل بكرٍ ألبسوا ... أثوابه في اللحد ثمّ تصدّعوا
عنه وما طابت بذاك نفوسهم ... ولكلّ جنبٍ لا محالة مصرع
وجزعت عليه أخته عمرة فقالت: الكامل

قل للأرامل واليتامى قد ثوى ... فلتبك أعينها على عتاب
أودى ابن كلّ مخاطرٍ بتلاده ... وبنفسه بقيا على الأحساب
الرّاكبين من الأمور صدورها ... لا يركبون معاهد الأذنان

قال أبو الحسن: قال الهلالي: أغمي على سعيد بن المسيب فوجه ثم أفاق فقال: ما هذا؟ فقيل له، فقال:
أوليس وجهي لله جل ذكره حيث كان!

وقال الهلالي: كان عثمان بن عفان، رحمه الله، إذا وقف على قبر بكى، فقيل له: يا أمير المؤمنين، إنك لتبكي
عند القبر بكاءً ما تبكيه عند شيء! فقال: نعم، إنه آخر منازل الدنيا وأول منازل الآخر، فإن شدد على
صاحبه فما بعده أشد، وإن هون على صاحبه فما بعده أهون. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:
ما رأيت منظرًا قط إلا والقبر أفضع منه.

وقال الهلالي: لما حضرت معاوية الوفاة، قيل له: قل لا إله إلا الله. فضعف عنها، ثم قيل له فضعف، فنلت
عليه. فقال: أولست من أهلها؟! وقال الهلالي: أنثي قوم على عوف الأعرابي وهو في الموت، فقال: يا قوم،
أمدونا بالدعاء، وأعفونا من الشاء.

باب الجفأة عند الموت

قال أبو العباس رحمه الله تعالى: ونذكر الجفأة عند الموت: قال علي بن محمد عن علي بن مجاهد عن ابن
إسحاق عن الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي طالب وهو في الموت: يا عم، قل لا إله إلا
الله أشهد لك بما عند ربي. قال: يا بن أخي، لولا أن تكون سبباً عليك بعدي لأقررت بما عينك.
وقال: قال الزهري: مر عبد الله بن مسعود بأبي جهل فقال: الحمد لله الذي أخرجك يا عدو الله. قال: يا بن
أم عبد، ما أخزاني الله. لست بأول سيد قتله قومه. إن أشد من ذلك علي ألا يكون ولي مني ما تريد أن
تليه، رجل من صميم المطيين، فوضع ابن مسعود رجله على عنقه فقال: أروبعياً بالأمس بمكة. لقد ارتقيت
مرتقى صعباً قال أبو الحسن: سئل وكيع بن الدورقية: كيف قتلت عبد الله ابن خازم؟ قال: قعدت على
صدره، وغلبته بفضل فتاء كان لي عليه وناديت: يا لثارات دويلة يعني أخاه من أمه. وكان دويلة أخوا وكيع
من أمه، قتله عبد الله. قال: وكنت طعنته في شذقه، فجمع ما كان في فيه من الدم والريق فتنخم به، فملأ
وجهي وقال: قبحك الله، أتقتل كيش مضر بأخ لك لا يساوي كف نوى!

قال: وكان ابن هبيرة يقول: هذه والله البسالة، لقدرته على كثرة ريقه عند الموت.

وقال عبد الله بن قاتد: كان طريف بن نافع الباهلي عالماً بالنسب، فلما ثقل قال لقومه وهو في الموت: بلوا

فمي بماء، فعصروا في فيه ماءً بقطنه، ثم قال: أجلسوني فأجلسوه فقال: فلان ليس لأبيه الذي يدعى له.
فقليل له: أتقول هذا وأنت على هذه الحال ! فقال: خفت أن أموت وأنتم في شك منه، ثم أضجعه فمات.
وقال يعقوب بن عوف عن عبد الله بن أبي بكر أن بجرة بن فراس القشيري قيل له وقد نزل به الموت : قل
لا إله إلا الله، قال: أشهد أن أبا الزاهرية أو أبا حرب نعم الفارس كان يوم النخيل ثم مات.
وقال عوانة: قال الحجاج لوزاع بن ذؤالة الكلبي: كيف قتلت همام بن قبيصة الفزاري ؟ قال: مربي والناس
منهزمون، ولو شاء أن يفوتني فعل، فلما رأني قصدي فضربني وضربته، وسقط وحاول القيام فلم يقدر
عليه، وقال وهو في الموت: الطويل

تعست ابن ذات البظر أجهز على امريء ... يرى الموت خيراً من فرارٍ وأكرما
ولا تتركني بالحشاشة إني ... صبوراً إذا ما التكس مثلك أحجما
فدنوت منه. فقال: أجهز علي قبحك الله، فقد كنت أحب أن يلي هذا مني أربط جأشاً منك. فاحتزرت
رأسه فأتيت به مروان وأخبرته الخبر، فقال: لا تبعد رجالات قيس !

قال أبو عبد الرحمن التميمي: جاء رجل من كلب برأس زياد بن عمرو العقيلي إلى مروان، فقال له مروان:
من قتل هذا ؟ قال: أنا. قال: كذبت ! هذا أشرف وأشجع من أن تقتله. قال: أنا، والله، قتلته، مربي يعدو
به فرسه وهو يقول: مشطور الرجز

قد طاب ورد الموت مروان فرد ... لا تحسبن العيش أدنى للرشد
لا خير في طول الحياة في كبد

فطعنته فسقط، ثم نزلت إليه وهو يجود بنفسه ويقول: السريع
بعداً وسحقاً لامريء عاش في ... ذلٌّ وفي كفيه غضبٌ صقيل
وقال يزيد بن قحيف: لما قتل حلحلة بن قيس وسعيد بن عيينة من قتلا من كلب، رجعوا إلى خيبر فأقاموا.
فلما ظفر عبد الملك استعداه الكليون وقالوا: دماءنا ! فأخذ عبد الملك سعيداً وحلحلة. فأما سعيد فكان
يسبح ويستغفر، وأما حلحلة فقال: أرحنا منك يا بن الزرقاء، فلو ملكتها منك لما تركتك طرفة عين. وقال:

الطويل

إن أك مقتولاً أقاد برمّي ... فمن قبل قلبي ما شفى نفسي القتل
وقد تركت حربي رفيده كلها ... محالفها في دارها الجوع والذلّ
ومن عبد ودّ قد أبرت قبائلاً ... فغادرتهم كلاً يطيف به كلّ

وقال أيضاً: الطويل

لعمرى لئن شيخا فزارة أسلما ... لقد خزيت قيسٌ وقد ظفرت كلب
فلا تأخذوا عقلاً وخصّوا بغارة ... بني عبد ودّ بين دومة والهضب
سلامٌ على حيي عديٍّ ومازنٍ ... جميعاً وخصّاً بالسلام أبا وهب

أبو وهب هو زبان بن منظور بن زبان. فقال لما بلغه قوله وخصاً بالسلام أبا وهب: رحمك الله أبا ثوبة، لقد

كفيتنا العار والنار، وأدركت النار، وللقوم فينا فضل، فلم تخصصنا عليهم، وقد ظلمتهم !.

فلما دعني به ليقتل قيل له: أصبر حلحل، فبرك وقال: الرجز

أصبر من عودٍ بجنيبه الجلب ... قد أثر البطان فيه والحقب

وقال: الرجز

أصبر من ذي ضاغطٍ عركرك ... ألقى بواني زوره للمبرك

ومد عنقه فقتله رجل من بني عبد ود.

وقال عوانة ويزيد بن عياض أن مسلم بن عقبة المري لما قتل أهل المدينة وتوجه إلى مكة فنزل به الموت بشية

هرشا أو بقفا المشلل فدعا حصين بن نمير السكوني فقال: يا برذعة الحمار، إن أمير المؤمنين عهد إلي إن نزل

بي الموت أن أوليك، وأكره خلافه عند الموت، ولولا ذلك لكان الوالي حبيش بن دلجة فإنه أولى بذلك

منك. احفظ عني ما أقول لك: لا تطيلن المقام بمكة، فإنها أرض جردة محتدمة الحر، ولا تصلح الدواب بها،

ولا تمنع أهل الشام من الحملة، ولا تمكن قريشاً من أذنك، فإنهم قوم خدع. ليكن أمرك الوقاف ثم التقاف

ثم الانصراف. ولئن دخلت النار بعد قلبي أهل الحرة إني إذن لشقي.

وقال عثمان بن الضحك عن ذكوان مولى مروان قال: بعث يزيد بطيب إلى مسلم فقال مسلم للطيب:

ويحك، إنما كنت أحب أن أبقى حتى أشفي نفسي من قبلة عثمان، وقد أدركت ما أردت. فما شيء أحب

إلي من الموت على طهارتي قبل أن أحدث حدثاً. فأني لا أشك في أن الله عز وجل طهرني من ذنوبي بقتل

هؤلاء الأرجاس.

وقال ابن جعدبة: قال مسلم بن عقبة وهو بالموت لحصين بن نمير: إنك تقدم على قوم لا علة ولا سلاح

لهم، جبال مشرفة عليهم، فانصب عليهم المنجنيق في موضعين بين جبلين فإن تعوذوا بالبيت فارمه، فما

أقدرك على بنائه. ومات.

وقال حمزة بن إبراهيم بن مضرس: قيل لرجل من بني قريع: قل لا إله إلا الله وقدم خيراً فقال: البسيط

يا ربّ قاتلة يوماً وقد لغبت ... كيف الطّريق إلى حَمَامٍ منجباب

ومات من ساعته.

وقال عبدة العبري: قيل لعبد الله بن شعبة بن القلعم: لو قدمت لنفسك خيراً، فقال لبنيه: يا بني إن قوماً

يقولون لكم بعدي: اقضوا دين أبيكم عنه، فلا تفعلوا، فإن لأبيكم ذنوباً كلها أعظم من الدين. اللهم، إن

تغفر تغفر جماً. فبكت امرأته، فقال: لا تعصري عينيك علي، وإذا مت فاركي بغلاً قوياً وطوفي اليمن

وانظري أطول بني تميم رقية فتزوجيه. فلما هلك تزوجها أبو شيخ بن العرق الفقيمي.

وقال: لما حضرت لبيد بن ربيعة الوفاة قال لبني عمه: أسمعوني كيف تكون علي. فقال رجال منهم أشعاراً لم

يرضها، فقال بعضهم: الطويل

لنبك لبيداً كلّ قدرٍ وجفنةٍ ... وتبك الصّبا من فاد وهو حميد

ولما حضرت الفرزدق الوفاة قال لأهله ومن اجتمع إليه من قومه: الوافر

أروني من يقوم لكم مقامي ... إذا ما الأمر جلّ عن العتاب
إلى من تفرعون إذا حثيتم ... بأيديكم عليّ من التراب
فقلت مولاته له: إلى الله. فقال: وأنت تعيشين في مالي؟! امحوا اسم الحبيثة من الوصية.
وقال المدائني: لما هلك الأحوص بن محمد بن عبد الله بن ثابت الأنصاري كان آخر ما قال، ورأسه في حجر
جارية له يقال لها بشرة: الطويل
ما لجديد الموت يا بشر لذة ... وكلّ جديد تستلذّ طرائفه
فلا ضير إنّ الله يا بشر ساتقي ... إلى منزلٍ فيه تكون خلائفه
فلمست وإن عيشٌ تولّى بجازع ... ولا أنا ممّا حمل الموت خائفه
وقال عوانة: لما حضر بأخرة قيل له: قل لا إله إلا الله. قال: قد بلغ الأمر إلى هذا؟ وقال مغلّس بن عبد الله
الخاربي: كت بساباط فسمعت غلاماً يصيح واسيداه، يعني نوفل بن صالح مولى بني جعفر، فأتيته فإذا هو
يجود بنفسه. فقلت: أبا صالح، قل لا إله إلا الله، فأبى وقال: الطويل
أيا ويح نفسي حسب نفسي الذي بها ... ويا ويح أهلي ما أصيب به أهلي
فقلت: قل لا إله إلا الله. فأبى، وجعل يردد هذا البيت حتى قبض.
وقال يونس بن حبيب: لما حضرت أخاه الأبح الكندي الوفاة قيل له: قل لا إله إلا الله، فلما أكثروا عليه
جعل يتقلب على جنبه ويقول:
وقد حيل بين العير والتروان
وقال أبو عمرو المدني وغيره: إن سالم بن دارة وهي أمه، وأبوه مسافع بن عقبة، من بني عبد الله بن غطفان
وقع بينه وبين زميل بن أم دينار وأبوه أبير، من بني فرارة شر، فضربه، فجرحه أبير، فأدخل المدينة، وحمل
إلى عثمان بن عفان، فأمر عثمان الطبيب فظفر ما مبلغ جرحه ثم أمره فداواه، فأفاق من وجعه، فلدت أم
البنين بنت عيينة بن حصن وهي امرأة عثمان إلى الطبيب دينارين. وقال قوم: بل أعطاه ذلك منظور بن
سيار فسم جرحه، فانقض فقال لأبيه وهو بالموت يحضه على قتل منظور: البسيط
أبلغ أبا سالم عني مغلغلة ... فلا تكونن أدنى القوم للعار
لا تأخذن مئة مني مكملة ... وإن أتاك بما تحدى ابن عمّار
لو كان زيداً هو المقتول لأعترفوا ... وسط الديار غلاماً غير عوّار
ومات من يومه. فقال أبوه: إن ابني عقني في حياته، وكلفني تعباً بعد موته.
وقال أبو الحسن قال أبو العباس: وحدثني أبو عثمان المازني وحدث به أبو الحسن عن عبد الله بن مسلم
قال: قيل لامرأة من بني نمير: أوصي فحدثني أبو عثمان المازني أنها قالت: ما أحب أن أوصي. قيل: إن لك
في ذلك لأجراً، قالت: من الذي يقول: الوافر
لعمرك ما رماح بني نمير ... بطائشة الصدور ولا قصار
قالوا: زياد الأعجم، قالت: ومن هو؟ من بني نمير قالت: فثلثي لبني نمير.
وقال أبو الحسن عن كليب بن خلف قال: مرضت عجوز من بني نمير فأتوها بعطاء ابنها، وكان غائباً،

فقالوا: هذا عطاء ابنك، وقد نقصناه درهمين. قالت: ولم؟ قالوا: قتل رجل من بني نمير رجلاً من بني سلول، فحملنا الدية شيئاً تراضوا به، فتناولت درهمين آخرين فألقتهما إليهم وقالت: قولوا له يقتل آخر، وادفعوا هذين في الدية، فضحكوا وخرجوا، فما غابوا حتى ماتت.

وقال عوانة: قيل للحطيئة عند موته: لك مال فأوص منه للمساكين: قال: بل أوصيهم بإلحاف المسألة. قيل: فأعق غلامك سيار. قال: هو عبد ما بقي على ظهر الأرض عسي. قيل: فأوص فإن لك بنات. قال: مالي كله للذكور دون الإناث. قالوا: إن الله جل ذكره لم يقل هكذا. قال: لكني أقوله. وأوصيكم بالأيتام شراً، كلوا أموالهم، وانكحوا أمهاتهم واحملوني على حمار، فلعلني لا أموت، فإنه لم يمت عليه كريم قط، وويل للشعر من رواية السوء.

وقيل له وهو يجود بنفسه: قل لا إله إلا الله، فتمثل قول الشماخ: الطويل
فظلّت بيمؤودٍ كأنّ عيونها ... إلى الشمس هل تدنو ركيّ نواكر

وقال أبو الحسن عن أبي خيران الحماني عن عوف الأعرابي عن أبي رجاء العطاردي قال: رأيت رجلاً مصطلم الأذن فقلت: أخلقة أم حادث؟ قال: بل حادث. بينا أنا يوم الحمل أجول في القتلى، مررت برجل منهم ينشد: الطويل

لقد أوردتنا حومة الموت أمّنا ... فما صدرت إلّا ونحن رواء
أطعنا قريشاً ضلّةً من حلومنا ... ونصرتنا أهل الحجاز عناء
لقد كان عن نصر ابن ضبة أمّه ... وشيعتها مندوحةً وغناء
أطعنا بني تميم بن مرة شقوةً ... وهل تميم إلّا أعبدٌ وإماء

فقلت: من أنت؟ قال: أدن مني أخبرك. فدنوت منه فأزم بأذني فقطعها وقال: إذا أتيت أمك فأخبرها أن عمير بن الأهلبن فعل ذلك بي، ومات.

وقال أبو الحسن عن عامر بن حفص قال: بلغني أن رجلاً من بني المهجيم قال وهو بالموت: الرجز
كيف تراني والمنايا تعترك ... تنهض أحياناً وحيناً تبترك

وقال أبو الحسن عن عامر بن الأسود: ثقل وكيع بن أبي سود فأشرف عليه عدي بن أرطاة وهو يومئذ أمير البصرة من دار الإمارة، فقال: كيف أصبحت يا أبا المطرف؟ قال: أصبحت وثاباً جرياً، فضحك عدي ورجع. فما جلس حتى سمع الواعية عليه.

وقال حمزة بن إبراهيم: قال لبطة بن الفرزدق: لما ظننا أن أبي قد احتضر بكينا حوله، ففتح عينيه ثم قال: أعلي تبكون؟ فقلنا: أفعلى ابن المراغة نبكي؟ قال: أوها هنا موضع ذكره؟ ثم أغمي عليه، فلما أفاق قال: الوافر

إذا ما دبّت الأتقاء فوقي ... وصاح صدىً عليّ مع الظلام
لقد شمتت أعاديكم وقالت ... أدانيكم من أين لنا الخامي؟

وقال أبو الحسن عن كليب بن خلف قال: قال وكيع بن أبي سود عند موته لأهله وولده: إني إذا مت

جاءكم قوم قد سودوا جباههم، ونشروا لحاهم، وعرضوا نعالهم، يقولون إن علي أبيكم ديناً فاقضوه، فلا تقضوا عني شيئاً، فإن علي أبيكم من الذنوب ما إن غفرها الله فالدين من أيسرها.

قال أبو الحسن عن عامر بن الأسود قال: قيل لأبي السفاح بكير بن معدان أوص، قال: إنا الكرام يوم طخفة. قالوا: إنك في الموت فقل خيراً وتشهد. قال: غلامي إذا مات فهو حر.

قال أبو الحسن: قال دحيم وهو بالموت: الرجز

قد وردت نفسي وما كادت ترد ... قد كنت ذا أزرٍ شديد المعتمد

وكتت ذا شغبٍ على الخصم الألد ... قد جاء قرنٌ ليس بالقرن يردّ

ثم هلك.

قال أبو الحسن: قيل لرجل وهو مريض: قل لا إله إلا الله. ب: فقال: لم يأن لذلك بعد.

وقيل لهرم بن حيان: أوص. فقال: صدقتني في الحياة نفسي، ما لي مال أوصيكم به، ولكني أوصيكم بخواتيم سورة البقرة.

وأخبر أبو الحسن عن شعبة بن عبد الله الأنصاري قال: عزي إيلس بن معاوية رجلاً عن ابنه فقال: لا ينقص الله عددك، ولا يزل نعمةً عنك، وعجل الله لك من الخلف خيراً مما رزئت به وعزي آخر رجلاً فقال: إن فيما عوضك الله من الأجر خيراً مما فجعتك به من الرزية.

وقيل لأعرابية: ما أحسن عزاءك عن ابنك! فقالت: إن فقدانيه أمني من المصائب بعده.

وقال: أخبرني سعيد عن رجل منهم قال: خرجت إلى اليمن فنزلت على امرأة منهم، فرأيت مالاً كبيراً

ورقيقاً وولداً وحالاً حسنة، فأقمت حتى قضيت حاجتي. فأردت الرحيل فقلت لها: ألك حاجة؟ قالت:

نعم، كلما نزلت هذه البلاد فانزل علي، ففهرت أعواماً، ثم أتيت اليمن، فأتيت منزل المرأة فإذا حالتها قد تغيرت، وذهب رقيقها، ومات ولدها، وباعت منزلها، وإذا هي مسرورة بحالها، ضاحكة. فقلت: أتضحكين

مع ما قد نزل بك؟ قالت: يا عبد الله، كنت في حال النعمة ولي أحزان كثيرة، فعلمت أن ذلك من قلة

الشكر، فأنا اليوم في هذه الحال أضحك شكراً لله على ما أعطاني من الصبر. فقلت لعبد الله بن عمر: ما

رأيت منها؟ فقال: ما كان صبر أيوب النبي عليه السلام إلى هذه بشيء.

وقال سفيان: شكوا الربيع بن أبي راشد إلى محارب بن دثار إبطاء خير أخيه جامع. فقال له محارب: إن لم تكن

وطنت نفسك على فراق جامع فأنت عاجز.

وقال: محمد بن أبي محمد: بلغني أن الإسكندر مر بمدينة قد ملكها أملاك سبعة، وبادوا. فقال: هل بقي من

نسل الأملاك الذين ملكوا هذه المدينة أحد؟ قالوا: رجل يكون في المقابر. فدعا به فقال: ما دعاك إلى لزوم

المقابر؟ قال: أردت أن أعزل عظام الملوك من عظام عبيدهم، فوجدت ذلك سواً. قال: فهل لك أن تتبعني

فأحبي بك شرف آبائك إن كانت لك همة؟ قال: إن همتي لعظيمة إن كانت بغيثي عندك. قال: وما بغيثك

؟ قال: حياة لا موت فيها، وشباب لا هرم معه، وغنى لا يتبعه فقر، وسرور لا يغيره مكروه. قال: ما أقدر

على هذا. قال: فامض لشأنك، وخليني أطلب بغيثي ممن هي عنده. فقال الإسكندر: هذا أحكم من رأيت.

وقال عبد الله بن عباس: ما قيل لقوم قط طوي لهم إلا خبأ لهم الدهر يوم شر، فالصبر خير مغبة.
وتحدث أبو الحسن المدائني قال: قال بعثر بن لقيط بن خالد بن نضلة الفقعسي وهلك ابنه طعمة، فورثه
بردين فلبسهما وأنشأ يقول: الطويل

كساني ثوبي طعمة الموت إنما التّ ... راث وإن عزّ الحبيب الغنائم
إذا نفحت ريّهما الرّيح نفحةً ... أبيت كأني غصّة الطّرف رائم
يقول: أبيت أحن كالناقة الرائم حيناً إلى ابني. والرائم: الناقة يفارقها ولدها فيحشى جلد فصيل تبناً أو غير
ذلك، ويلطخ بشيء من سلاها، وتحشى غمامة في أنفها، وتجعل درجة في حياثها، فتفتح عينها، وذلك الجلد
محشو كأنه خرج منها، ورائحة السلا فيه، وتنزع الغمامة من أنفها فيجد لذلك رائحة، فكأنها قد ولدت،
فإذا تشممت ذلك الولد فقد رأته، فينزل اللبن، فكأنهم خدعوها عن لبنها.

وقال شعيب بن صفوان: كان لحضرمي بن عامر الأسدي إخوة فهلكوا، فورث أموالهم، فراح ذات يوم في
بردين له، فظفر إليه رجل من قومه يقال له جزء بن فاتك، فقال له: لقد أمسيت يا حضرمي جدلان، فأنشأ
يقول وجزع: المنسرح

يقول جزء ولم يقل جلا ... إني تروحت ناعماً جدلاً
إن كنت أزننتي بما كذباً ... جزء فلاقيت مثلها عجلاً
أفرح أن أرزأ الكرام وأن ... أورث ذوداً شصائصاً نبلاً؟
الذوذ: القليل من الإبل. يقال: إن الذوذ الذوذ إلى الذوذ إبل والشصائص: المهازيل العجاف. والنبل: يقول
أصحاب الغريب إنها الحقيرة، وإنما من الأضداد.

كم كان في إخوتي إذا اشتعل الأب ... طال تحت العجاجة الأسلا
من فارسٍ ماجدٍ أخي ثقةٍ ... يعطي جزيلاً ويقتل البطلا
وقال حرب وذكر المعمرين: عاش دويد النهدي أربع مائة سنة، فقال لولده وأهله حين نزل به الموت:
أوصيكم بالناس شراً، طعناً لزا، وضرباً أزا، اقصروا الأعنة، وأطيلوا الأسننة، وارعوا الكلا، ثم قال: مشطور
الرجز

اليوم بيني لدويد بيته ... يا ربّ نهب حسن حويته
ومعصم ذي برةٍ لويته ... لو كان للدّهر بلىً أبليته
أو كان قرني واحداً كفيته

وقال عروة بن سليم: دخلت على رجل من الأحامرة بالكوفة، وعنده جماعة من أهله وغيرهم، فقالوا: قل
لا إله إلا الله، فأعرض بوجهه، فأعادوها عليه مراراً، فقال: أخبروني عن أبي طالب أقالها؟ قالوا: وما أنت
وأبو طالب؟ قال: لا أرغب بنفسني عنه.

وقال سلام بن أبي خيرة: ضربت الخوارج بكراً الطاحي فقتلوه بالسيوف، فدخل عليه قوم يعودونه وعنده
رجال ونساء، فقالوا له: ليس عليك بأس، فقال: الطويل
غناءً قليلٌ عن بكير بن وائلٍ ... ترمز أستاها الإمام العوائد

باب من تكلم في مرضه

بشيء حكى عنه

قال أبو الحسن: حدثني رجل من بني كنانة من أهل المدينة قال: مرض بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعاده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر الصديق، فقال بلال: الرجز جاءك مولاك مع الرسول... ذاك هدى الله به سبيلي فلم أدن دين أبي عقيل... ولا بدين الأسود الضلول

وقال أبو الحسن عن غياث بن إبراهيم عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قال أبو العباس: وحدثني به ابن عائشة وأبو عمر الجرمي ورسمه واحد قال: لما قدم المهاجرون المدينة وعكوا وابن عائشة والجرمي يقولان: اجتووها، وكانت أشد أرض الله حمى. قالت عائشة: فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذهبي فانظري كيف أبوك وعمك، فدخلت على أبي بكر فقلت: يا أبتاه كيف تجلك؟ فقال: الرجز

كلّ امرئ مصيخ في أهله... والموت أدنى من شرك نعله
ثم دخلت على بلال فقلت: كيف تجلك؟ فقال: الطويل
ألا ليت شعري هل أبيت ليلة... بفتح وحوالي إذخر وجيليل
وهل أردن يوماً مياه مجنة... وهل يبدون لي شامة وطفيل

قالت: فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: اللهم عليك عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء. اللهم حيب إلينا المدينة كما حبيت إلينا مكة، وانقل وباءها إلى الجحفة.

وفي حديث ابن عائشة وأبي عمر: اللهم، العن أبا جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأميمة بن خلف. وحبب إلينا المدينة كما حبيت إلينا مكة وأكثر، وانقل ما بها من الوباء إلى مهيعة، وهي الجحفة. قال: فجاء أهل الجحفة يضحون من الحمى.

قالت: ودخلت على عامر بن فهيرة فقلت: يا عم، كيف تجلك؟ فقال: مشطور الرجز

لقد وجدت الموت قبل ذوقه

قال: وأنشدنا ابن عائشة:

والمرء يأتي حنقه من فوقه

وقال أبو الحسن:

إنّ الجبان حنقه من فوقه... كلّ امرئ مقاتل عن طوقه

كالتور يحمي جلده بروقه

وقال أبو الحسن: مرض حسان بن بحدل الكلبي ومنظور بن زيد أخو بني عبد ود، من كلب، مرضاً شديداً،

فعادهما عبد الملك، فلما خرج من عندهما تمثل: الوافر
ومالي في دمشق ولا قراها ... مبيت إن عرضت ولا مقيل
ومالي بعد حسن صديق ... ومالي بعد منظور خليل
وقال أبو الحسن: لما ولي بشر بن مروان البصرة أتاه الفرزدق ولم يكن أتاه بالكوفة، وكان بشر عليه واجداً.
وقدم بشر البصرة فمرض فقل الفرزدق حيث قام بين يديه: البسيط
لو أنني كنت ذا نفسين إن هلكت ... إحداهما بقي أخرى لمن غبرا
إذن لجئت على ما كان من وجل ... وما وجدت حماماً يغلب القدرا
له يذ يغلب المعطين نائلها ... إذا تروّح للمعروف أو بكر
تغدو الرياح وتسمي وهي فاترة ... وأنت ذو نائل يمسي وما فترا
وقال: دخل كثير عزة على عبد الملك وهو مريض، فلما رآه قال: ها هنا، وأجلسه من ورائه، فقال كثير:
الكامل

ونعود سيدنا وسيد غيرنا ... ليت التشكي كان بالعواد
لو كان يقبل فدية لغديته ... بالمصطفى من طارفي وتلاذي
قال أبو العباس: هذا الشعر غلط، إنما هو لجرير في الوليد بن عبد الملك وفيها يقول:
ودعا الخليفة فاستجيب دعاؤه ... والله يسمع دعوة الأجناد
وتحدث أبو الحسن عن حماد الراوية قال: حدثني العريان بن الهيثم قال: بعثني أبي إلى شيب بن ربيعي أسأل
به وهو مريض، وهو بين ابنتين له كأنهما الشمس يقلبانه، فقلت: يقول لك أخوك الهيثم: كيف تجدك ؟
فقال متمثلاً: الطويل

تمنى ابتائي أن يعيش أبوهما ... وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر
وناديتين تندبان بعافل ... أcha ثقة لا عين منه ولا أثر
فقوما فقولا بالذي قد علمتما ... ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر
وقولا هو المرء الذي لا حميمه ... أضع ولا خان الصديق ولا غدر
إلى الحول ثم أسم السّلام عليكما ... ومن ييك حولاً كاملاً فقد اعتنر
ثم قال: ما فعل الحجاج؟ فأخبرته. ثم أتيت أبي فأعلمته، فلما رحنا إلى الحجاج قال: ما فعل شيب؟ قال
أبي: أتاه العريان اليوم عائداً. فسألني فحدثته الحديث. فقال الحجاج: لا تبعد العرب! ثم قال: ويحكم يا
أهل العراق، إنكم لأنتم الناس لولا ما شملكم من هذا الرأي الخبيث.
قال أبو العباس محمد بن يزيد: قد أكثرنا في المراثي والمواعظ من بين شعر وكلام نثر ورسالة وغير ذلك مما
يتصل به.

والمراثي وأسبابها باقية مع الناس أبداً، إذ كانت الفجائع لا تنقضي إلا بانقضاء المصائب، ولا يفنى ذلك إلا
بغناء الأرض ومن عليها، ولا إله إلا الله الحي الذي لا يموت. ونحن خاتو ذلك بباب نجمع فيه من كل شيء

إن شاء الله، وبه الحول والقوة. ثم نبتديء شيئاً غيره. فإن الإكثار سرف، كما أن التقصير كالعجز. وفيما أملينا بلاغ وعظمة إن شاء الله تعالى.

قال عبد العزيز بن عبد الرحيم بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب يرثي أباه. وكان أبوه جليلاً من بني هاشم له أدب وعارضة وبلاغة ونجدة وبيان، فولاة أمير المؤمنين المعتصم بالله اليمن، ثم ولي بعد أن طال مكثه بها إيتاخ ذلك البلد، فولى إيتاخ عليها الشار، فحمل إليه الشار عبد الرحيم، فطالبه إيتاخ بالخراج وحبسه لامتناعه عليه، فمات في السجن بعد مدة. وكان عبد العزيز أجل بنيه، وقد ولي الولايات، وكان شاعراً مفلقاً وخطيباً مصقفاً، فقال يرثي أباه قولاً أعرب فيه فأفصح، وأعرب فيه فلم يفحش، ولكنه خرج أحسن الخروج من كلام مبسوط ومعان مفهومة وهو قوله: الطويل

أشد أيها التاعي وإن كنت لا تدري ... بكنه الذي تنعى من الدين والقدر
ومن ركن أركان الملوك الذي به ... تلوذ إذا حلّ الجسيم من الأمر
هوى فهوت أركان عزّ وأعوزت ... ثغور به كانت أو امن للذعر
ومن يلبس الأقطار أمناً بذكره ... ويكشف عنها طخية الذلّ والفقر
ومن كان إن أرض من الخل أظلمت ... رماها بأنفى للظلام من الفجر
بوجه كأنّ البدر فوق جبينه ... وبذل لى الأموال بالتائل العمر
وجود يبدّ المجد والجود قبله ... ونور بهاء كان أهى من البدر
تزيد الليالي والخطوب ضياءه ... إذا غير البدر الخاق من الشهر
ويبسط بالعرف العفاة قهلاً ... إذا كان بعض المنع بالنظر الشتر
فإنك تعنى بالصفات عن اسمه ... فلم تر إلا عارفاً غير ذي نكر
وإنا لمعتادو رزايا عظيمة ... نخاف بأدناهن قاصمة الظهر
يظلّ لها منا رجالاً كأنما ... تعالى على أكتافها فلق الصخر
فنصبر حتى تتجلي غمراً ... إذا لم يكن في الصبر عيباً على الحرّ
تجلّ مصيباتٍ وتعرّو نوائب ... ولا مثل ما أنتحت علينا يد الدهر
لقد عرّكتنا للزمان ملامة ... أذمت بمحمود الجلادة والصبر
وذلك أن الصبر أصبح بعده ... بمن كان ذا دين ومعرفة يزري
فلما رأيت الصبر يزري بأهله ... وضاق بما قد جلّ من حدث صدي
وأنّ البكا فخر، بكيته بعولة ... عليه لكيلا يعتليني أولو الفخر
وروّحت بعد اليأس والصبر زفرة ... تردّد ما بين الجوانح والصدر
حينياً كما حنّ البراع يردّه ... حيازيم ضاقت للتشيع الذي يفري
وخليت أسراب الدّموع فأمطرت ... بغير معيب بالدموع ولا نزر
وقلّ له منا البكاء وقد بكت ... لنا الطير لو كانت مدامعها تجري

بكي الثقلان الجنّ والإنس فقلده ... وغيرهما من ساكني البرّ والبحر
وأقسم لولا خشية الله وحده ... ركبت بنفسي كلّ مستصعبٍ وعر
بموتك يا عبد الرّحيم بن جعفرٍ ... تزايل شعب الملك عن أفحش الكسر
وصارت بناة الدّين بعدك صدعها ... يطير شظايا لا تلاءم بالجبر
بموتك مات الجود والجد كلّهُ ... وجدّع أنف العزّ فينا إلى الحشر
لقد هدّ ركن الدّين موتك هدّةً ... أنافت لها الأعناق من أمم الكفر
وأبلس إبلّاس المذلّة ديننا ... وأغضى بك الإسلام عيناً على وتر
وأضحت قلوب المسلمين مريضةً ... توكّف فيه مثل راغية البكر

وقد وجد الأعداء في الملك مطعناً ... عواقبه قتلٌ يجلّ عن التّشر
فلا هنا الأعداء عشرة دهرنا ... فقد وأبي قرّت عيون ذوي الغمر
رزنا أمراً لا نحفل الدّهر بعده ... ولا الموت، فلتفرّ الحوادث ما تفري
فله عيناً من رأى من رزيةٍ ... وعشرة دهرٍ أمّنتنا من العثر
فواكبدا لو في الوغى كان موته ... بكينا عليه بالردّينيّة السّم
وبالبيض والمرفوعة الزّرق دمعها ... دمّ عاندٌ ينثال بالعلق الحمر
وبالحيل يعلكن الشكيم كأنّها ... كواسر عقبانٍ نواهض عن قدر
يخصن نجيباً مائراً بعد جامدٍ ... فلاياً تين الكمت فيها من الشقر
وأضحى نهار التّاس ليلاً وألمت ... كواكبنا بالهندوانية البتر
ولم يغن ضوء الشّمس في قسطل الوغى ... فتيلاً ونار الحرب ثاقبة الجمر
وأهدت الأصوات إلّا غماغم ال ... كمأة ووقع المشرقية بالهبر
وخذاها أيا بن الأكرمين وخذ بها ... وأخر وقدم بالوعيد وبالزّجر
فمن مقعص يعطو بفضل حشاشةٍ ... وآخر تفريه الحوامي وما يلدي
يفرّقن أوصالاً كراماً أعزّةً ... ويفضخن هاماً من جحاجةٍ زهر
وقمنا إلى الثّار الميم فلم يئل ... ولو نيط بالعيق أو نيط بالنسر
فكنا وإن لم نوف من شيخنا دماً ... نقرّ عيوناً أو نريغ إلى عندر
ونهدأ نفساً ما تلاقي جفونها ... إذا اللّيل ألقى ذيل أرواقه الخضر
ولكن وقيناه القنا بنحورنا ... وفات كذا في غير هيجٍ ولا نفر
فيا بن التّبيّ المصطفى وابن عمّه ... ويا بن عليّ والقواطم والخبر
ويا بن اختيار الله من آل آدمٍ ... أباً فأباً طهراً يؤدّي إلى طهر
ويا بن عليّ بعد والحسن الذي ... تلافى عرى الإسلام وابن أبي بكر
ويا بن سليمان الذي كان موثلاً ... لمن ضاقت الدّنيا به من بني فهر

ومن ملأ الدنيا بهاءً وناتلاً ... وروى حجيجاً باللمعة القفر
تعزّ بما قد نالنا من رزيةٍ ... بموتك محبوساً على صاحب القبر
فإن مت في حبس الخليفة صابراً ... أياً لما يعطي الدليل على القسر
فكم من عدوٍ للخليفة قد هوى ... بكفّيك أو أعطى المقادة بالصغر
فلا أورقت شجراً أرض ولا دحا ... من الغيث منهلاً متى طائرٌ يسري
فقل للمنايا والمثالف اعصفا ... فلم يبق فينا من يريش ولا ييري
وقل للأعداء أعلنوا الآن أو دعوا ... سواءً علينا المستسرّ وذو الجهر
وقال أحمد بن محمد الخنعمي يرثي إبراهيم بن سعيد الحميري: الخفيف
أيها التاعيان من تعيان؟ ... وعلى من أراكما تبكيان
انعيا الثاقب الزناد أبا إس ... حاق ربّ المعروف والإحسان
ارجعنا بي إن لم يكن لكما عقى ... رُ إلى لحد قبره فاعقراني
فانضحنا من دمي عليه فقد كا ... ن دمي من نده لو تعلمان
فكأنا ولم يطل بك عهدٌ ... ما رأيناك عامر الأعطان
بين آدم تدمي، وركب منيخٍ ... وعساسٍ ملتوتةٍ وجفان
صلصل الصّوت في صفائك بالرو ... ب خفيض الكلام في الصفان؟
مسمع القدح من خطار وفودٍ ... وعلدٍم الأتباع يوم الرّهان؟
ليت أنا فداك إذ في الطّ ... م وفاضت مناهل الحدّثان
فغدنا ظاعناً يحثّ به التّع ... ش حثيث السرى وليس بوان
سفرٌ شاسعٌ وحادٍ مجدٌ ... وقعودٌ باق على الرّقلان

الكتاب : التعازي والمراثي

المؤلف : المبرد

شرب الموت منه محضه دو ... ن حليها السطور من قحطان
أيها الموت قد نهضت بحملي ... ن من الذمّ فيه والأضغان
قم بأعلى البقاع من غمدان ... وبسفلى الكثيب من عسفان
هل ترى غير مجلسٍ صخب الأف ... ق بياكٍ ونادبٍ ثكلان
وترى غير ذابلٍ سمهريّ ... ركذ الزجّ في مكان السنان
وترى غير مقرمٍ ناصل التا ... ب قليل السموّ في الهدران
وعديمٍ يعبّ في قدح الثك ... ل هديم الخباء والبيان
ومن المراثي المستحسنة المقدمة ونحتاج أن نذكر معها خبرها وهو أن مالك بن زهير بن رواحة بن جذيمة
العبسي وكان من أشرف بني عبس، وجذيمة منهم قتل في حرب داحس. وكان جانيها أخوه قيس بن زهير،
فنشبت بينهم فيما ذكر أربعين سنة. وتشاءم بهم قومهم، فوجه قيس جاريته لتعلم ما عند الربيع بن زياد
العبسي أیغضب لهذا الحديث فيقوى به أو يستهين، فرأت عنده أكثر مما أحب، فرجعت إليه فقالت: سمعت
عويلاً منه دون نسائه وحرمة أكثر من حركة جميع الحي، وهو يقول: الكامل
منع الرقاد فما أغمض حار ... جلل من التما المهمّ الساري
من مثله تسمي النساء حواسراً ... فقوم معولة مع الأسحار
من كان مسروراً بمقتل مالك ... فليأت نسوتنا بوجه نهار
تأويل هذا البيت أنه إذا رأى ما يضع عليه من الجزع، علم أن ثار مثله لا يترك.
يجد النساء حواسراً يندبهن ... يضربن أوجههن بالأسحار
يخمشن حرّ وجوههن على فتى ... سهل الخليفة طيب الأخبار
قد كنّ يكنن الوجوه تستراً ... فالآن حين بدون للنظار
أفبعد مقتل مالك بن زهير ... ترجو النساء عواقب الأطهار
قوله: أفبعد مقتل مالك بن زهير، مزاحف ناقص جزءاً. وهذا في هذه العروض جائز، وهي التي يقال لها
المقطوعة في الكامل. ونظيره قول حميد بن ثور: الكامل
أبلغ أمير المؤمنين فإته ... طبّ يلوم المستليم ويعندر
أني كبرت وأنّ كلّ كبيرٍ ... فما يظنّ به يملّ ويقبر
رجع الشعر:
ما إن أرى في قتله لذوي القوى ... إلا المطيّ تشدّ بالأكوار
ومجّناتٍ ما يذقن عدوفاً ... يجهنن بالمهرات والأمهار
هذا مثل البيت المزاحف. يقال: ما ذقت عدوفاً ولا عداناً، ولا لماظاً ولا لماقاً. وكل هذا في معنى لم أذق

شيئاً.

وفوارساً صداً الحديد عليهم ... فكأنما طلي الوجوه بقار
ويقوز كل مقلّص من خيلنا ... سلس القياد معاقد التكرار
حتى نبير بذى المريقب غدوةً ... بدرأً ونعذر من بني سيّار
بدر: ابن عمرو الفزاري، وبنو سيّار بن زبان الفزاري قتلوا ابن عمهم وحاربوهم غدراً بغير دم ولا افتقار.
ولربّ مسرورٍ بمقتل مالكٍ ... كلاً وربّ البيت ذي الأسرار
حتى نبير بمالكٍ سرواقهم ... حملاً وفارسهم أبا حجّار
حمل: ابن بدر وكان من فرسانهم وشجعانهم، وهو الذي يقول فيه القائل في هذه القصة بعد أن قتل: الوافر
ولكنّ القتي حمل بن بدرٍ ... بغى والبغى مصرعه وخيم
وأبو حجّار: مالك بن حمار الشمخي، وبنو شمش من فرارة، وفرارة ابن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان.
وبنو عبس ابن بغيض بن ريث، فكان عبس وذبيان أخوين. وكانت حربهم أربعين سنة.
وحرب الأنصار الأوس والخزرج، ابني حارثة بن ثعلبة بن عمرو ابن عامر كانت أكثر من هذا فيما ذكرت
الرواية وكانت لا تزال تعبر.

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: دربوا لي بالحروب حتى دربوا. وقالت عائشة رضي الله عنها:
قدمنا عليهم والجراح تطيف دماً من حرب بعث.
فحرب الأنصار: حرب بعث، وحرب ابني بغيض: حرب داحس، وحرب بكر وتغلب تسمى: البسوس.

وقال أبو ناظرة السدوسي، وكان رجلاً من أهل العلم والمعرفة بكلام العرب وحسن التصرف فيه، يرثي
البصرة وأهلها بكلام عربي فصيح يبيء أنه كلام موجه يخرج عن نية صادقة من ألقاظ رجل لا عجز يقعد
به عن بلوغ الحاجة، ولا إسراف في قوله وتمحل يتجاوز به القدر: الطويل
منازلنا هل من إياب مؤم؟ ... إليك، إذا ما آب كلّ غريب؟!
وهل نحن يوماً عائدون ذوي غنى ... ومنتجع للمعتفين خصيب
وآذنة في كلّ حيّ يزيناها ... نقاء جيوب منهم وغيوب
وحلم وعلم ليس بالترز فيهم ... فلا يطون مسعاه مشوب؟
وقل لدعاة الشمس هل من تشهدٍ ... لوقت صباح أو لوقت غروب
نحن ولم نظلم إليك صبايةً ... تفتت أكبادنا وقلوب
وقلّ غناءً عبرةً مستهلةً ... تفرق من عين عليك سكوب
أبي الصبر تذكّار الديار التي خلت ... مجالسها من سوددٍ وخطوب
ومغدى ذوي الحاجات في كلّ شارقٍ ... إلى كلّ مغشيّ الفناء مهيب
وكلّ مطاعٍ في العشيّة ماجدٍ ... معين على ريب الزمان وهوب
منازل فارقن العهود ولم تكن ... معاناً لنا قوسٍ ولا لصليب

منازل قومٍ أسرع السيف منهم ... إلى كلِّ وصّاح الجين نجيب
وكلّ فتىً يرنو إلى اللهو والصبا ... جرورٍ لأذيال الشّباب سحب
وكلّ صميمٍ من ذؤابة قومه ... كريمٍ لغايات الكرام طلب
أبوا أن يرى الله الهوادة منهم ... لأعضه عن دين النبيّ نكوب
فأودوا وقد عاشوا كراماً أعقّة ... على فتنٍ مرّت بهم وحروب
تغاديهم ضرباً على الهام تارة ... وذبحاً بأقسيّ أنفسٍ وقلوب
فكم من رحىً دارت وكم من مصيبةٍ ... توالى ومن يومٍ هناك عصيب
على ألف ألفٍ من ملوكٍ وسوقةٍ ... ثوروا بين أبوابٍ لهم ودروب
مفلّقةً هاماتهم وشريدهم ... شماطيطٍ شتىً أوجهٍ وسروب
إلى غير راعٍ يرتجى التصرّ عنده ... ولا عطنٍ يؤوى إليه رحيب
عباديد من ناجٍ على جنمٍ بغلةٍ ... ومن رازحٍ يشكو الكلال جنيب
ومن راسبٍ طافٍ على الماء شلوه ... وذو ظمأٍ أودى به وسغوب
فيا أرضهم أخلوك فابكي عليهم ... وجودي عليهم يا سماءٍ وصوبي
أرى كلّ قومٍ لا يزال مظنّةً ... منازلهم من آيبٍ ومؤوب
سوانا فإننا حشو كلِّ مدينةٍ ... وألقاؤها من نازحٍ وقريب
ذو أوجهٍ فيها كوابٍ وأعين ... بواكٍ وفقرٍ ظاهرٍ وشحوب
فمن رام أن يبتاع منّا حديقةً ... من التخلٍ أعطى درهماً بجريب
فدو العزّ منّا مستكينٌ وذو الغنى ... كأن لم يكن ذا رتبةٍ وركوب
فما حلّ بالإسلام مثل مصابنا ... وسلطاننا للدين حقّ غصوب
وكنّا ولم تشقق عصانا ولم تبت ... عقاربنا فينا ذواتٍ ديب
نميمةً تسري إلينا كأنما ... تطالبنا في مصرنا بذنوب
يقصّر عن بغداد كلِّ فضيلةٍ ... خصصنا بما إسهاب كلِّ خطيب
رجالاً ومالاً يعرف الناس فضله ... على كلِّ حالٍ رائحٍ وغريب
فلا المربد المعمور بالعزّ والتّهي ... وكلّ فتىً للمكرّمات كسوب
ولا قصر أوسٍ والمناخ الذي به ... وما حوله من روضةٍ وكنيب
بمترجّع يوماً ولا المسجد الذي ... إليه تناهى علم كلِّ أديب
ولا قائمٌ لله اناء ليله ... به كلّ أوّاهٍ إليه منيب
ولا عائذٍ ذاك الحزين كعهده ... لكلّ مسنٍّ حوله ومهيب

ولا الشطّ إذ فيه لنا الخير كلّه ... وإذ معناه الدهر غير جديب
وبالفيض والتّهرين من كلِّ جانبٍ ... مناظرٍ لذاتٍ عفت وشروب

وإذ ما نراه من سفينٍ وراكبٍ ... على ظهر منقادٍ إليه صبوب
ودجلة أحمى جانبيها كليهما ... كتائب زنجٍ كالطين دبوب
مؤللة أسنانهم وعيونهم ... توقد في كهرورةٍ وقطوب
قوله كهرورةٍ إنما هي القطوب والعبوس كما قال زيد الخيل: الطويل
ولست بذي كهرورةٍ غير أنني ... إذا طلعت أولى المغيرة أعبس
طماطم لا ربُّ لهم يعرفونه ... وقد دربوا بالحرب أي دروب
وجونٍ نواجٍ منجياتٍ لواحقٍ ... تروح وتغدو غير ذات عكوب
الجون: السود. يعني: الخيل. والعكوب: الغبار، وبه سمي عكابة
تساجلنا فيها المنايا عبيدنا ... بكلِّ حسامٍ في العظام رسوب
أنسلبها غلباً ضوامن للقرى ... على سنواتٍ تعترى وجدوب
يعني النخل، والأغلب: الغليظ العنق.
جداوها في كلِّ يومٍ وليلةٍ ... ذوات جمومٍ تحتها ونضوب
وما النخل في اجلاسنا عن كواعبٍ ... يساقطن في ديمومةٍ وشيوب؟
وما في خيام الزنج من حرٍّ أو وجهٍ ... ذوات وسومٍ فيهم وندوب
ولا ذو محاماةٍ ولا ذو حفيظةٍ ... ولكن رقيبٌ من وراء رقيب
على الثمر المفجوع أربابه به ... على خطرٍ من مجتناه عجيب
يقولون حشري قسا من مدافعٍ ... لدى مشهدٍ منا ولا بمغيب؟
وقالوا تناسوها فليس بعائدٍ ... تجاور أحياءٍ بها وشعوب
وإني لأرجو أن أرى ذاك منهم ... وللدهر أيام... وخطوب
نعت أرضنا الدنيا إلينا وأدبرت ... بكلِّ نعيمٍ في الحياة وطيب
وما كانت الدنيا سوى البلد الذي ... خلا اليوم من داعٍ به ومجيب
وما عيش هذا الناس بعد ذهابه ... بعيشٍ ولا مغناهم برغيب
إذا الدمع لم يسعد كئيباً فإني ... سأبكي وأبكي الدهر كلَّ كئيب
على دمن جرت بها الریح بعدنا ... ذبول البلى من شمألٍ وجنوب
وما كلُّ بصريّ. شكا بمفندٍ ... ولا كلُّ بصريّ بكى بمعيب
ولو أن بصرياً بكى كنه شجوه ... بكى بدمٍ حتى الممات صيب
فمن مبلغٌ عني بريهاً ورهطه ... وما أنا في حبيهم بمريب
إذا أنتم غادرتموها كأنها ... منازل عادٍ غير ذات عريب
فلا ترفعوا الأبصار إلا كليله ... إلى الناس أو منهلةً بغروب
فيا بصريّ. كم من هالكٍ مات حسرةً ... عليك ومن صبَّ إليك طروب
يظلُّ شعاعاً قلبه ومبيته ... على سننٍ من ربه ونخب

عليك سلام الله منّا فإننا ... نرى العيش إلاّ فيك غير حبيب
وقال عمرو بن الأслع يرثي أبا جنيد بن عمرو بن الأسلع العبسي ويذكر قتل حذيفة بن بلر إياه: الوافر
فلا يكن الوداع أبا جنيدٍ ... وآخر حاجة السّفَر الوداع
فإن خابت حيال بني سبيعٍ ... ونعم القوم إن قومَ أضاعوا
فلا تياس بذلك وانتظري ... وشرّ حديث قاتله سماع
أنتك كأنّها عقبان دجنٍ ... تجاوب في حناجرها اليراع
وقال مهلهل بن ربيعة: الكامل
قتلوا كليياً ثمّ قالوا اربعوا ... كذبوا وربّ الحلّ والإحرام
حتىّ تبید قبيلةً وقبيلةً ... ويعضّ كلّ مذكّرٍ بالهام
وتجول ربّات الخدور حواسراً ... يمسحن عرض ذواتب الأيتام
حتىّ يعضّ الشّيخ بعد حميمه ... ثمّ يرى جزعاً على الإبهام
إنّا لنضرب بالسّيوف رؤوسهم ... ضرب القدار نقيعة القدام
ولقد وطئن بيوت يشكر وطأةً ... أحوالنا، وهم بنو الأعمام
وقال أيضاً: المديد
يا لبكرٍ أنشروا لي كليياً ... يا لبكرٍ أين أين الفرار؟
تلك شيبان تقول لذهلٍ ... صرّح الشّرّ وبان السّرار
وبنو يشكر قاموا فقالوا ... قصّة عوجاء فيها استتار
وبنو عجلٍ تقول لقيسٍ ... ولتيم اللات سيروا فساروا
وسنملي بعقب ذكر مهلهل هذا خبر وقائعهم ليفهم مجرى هذه المراثي وما يتبعها من أمثالها من لم يفهمه،
ليعلم أن هذه الأشعار بنيت على أساسات من حكم العرب، تفيد أمثالاً عجيبية ومذاهب غزيرة وأقوالاً
على أمور ينتفع بها في مثل ما قصدوا له وفي غيره من غير بابها. والحديث ذو شجون. وبالله الحول والقوة.
بكر وتغلب ابنا وائل شعبان ضخمان سادهما جميعاً كليب بن ربيعة التغلبي، وهو الذي يقال له كليب وائل،
فيضرب به المثل، حتى ادعت ربيعة في كليب أن العرب كلها تنقاد لشرفها. وفيه يقول النابغة الجعدي
لرجل من أهله بغى وتعدى يخوفه عدوان الظلم: الطويل
كليبٌ لعمري كان أكثر ناصراً ... وأهون ذنباً منك ضرّج بالدم
رمى ضرع نابٍ فاستحرّ بطعنةٍ ... كحاشية البرد اليماني المسهم
وكان سبب قتله على عزة من قومه ولحمته على أنه كان لا يرفع بحضرة صوت ولا يسمع في ناديه كلمة
خنا. وفي ذلك يقول المهلهل في مرثيته إياه: الكامل
ذهب الخيار من المعاشر كلّهم ... واستبّ بعدك يا كليب المجلس
وتنازعوا في أمر كلّ عظيمةٍ ... لو كنت حاضر أمرهم لم ينسوا

ومهلل أخو كليب واسمه عدي، وهما ابنا ربيعة، وكان مهلهل يسففه كليب ويصفه بالغزل والتحدث إلى النساء يذمره بذلك فيقول: أنت زير نساء.

وكان شرف بكر بن وائل في ولد ذي الجدين وهو عبد الله بن همام بن مرة بن ذهل ابن شيبان. وهؤلاء أشراف وأبناء أشراف. وهم بيت بكر بن وائل وشرفها.

وكانت إحدى بنات مرة تحت كليب بن ربيعة، وكان عدي المهلهل أخي همام بن مرة. وكان عاقده وعاهده ألا يكتم أحدهما صاحبه خبراً يقع إليه. فجاءت جارية لهمام فسارته بشيء، فتغير وجهه، فقال المهلهل: ما قالت لك يا أخي؟ فوري فقال له: العهد! فقال: خبرتني أن أخي قتل أخاك. فقال له المهلهل: لا ترع، فإن همة أخيك لا تبلغ ذاك.

وسيتصل الخبر مستقصى بوقائعهم إن شاء الله.

وكانت حربهم أربعين سنة في مقتل كليب، وهو موصول بما ابتدأناه بما فيه من مراثيهم وغيرها. فقالت ماوية بنت مرة امرأة كليب، تشتكي ما بها من قتل أخيها زوجها، وهي قصيدة محيطة بالمعنى المقصود، جيدة الكلام بوفرة التشكي: الرمل

يا بنة الأقوام إن شئت فلا ... تعجلي باللوم حتى تسألي
فإذا أنت تبينت التي ... عندها اللوم فلومي واعذلي
إن تكن أخت امريء ليمت على ... شفق منها عليه فافعلي
قتل جسّاسٍ على وجدتي به ... قاطعٌ ظهري ومفنٍ أجلي
لو بعيني فديت عينٌ سوى ... أختها فأنفقات لم أحفل
تحمل العين قذى العين كما ... تحمل الأمّ قذى ما تفتلي
يا قتيلاً قووض الدهر به ... سقف بيتي جميعاً من عل
هدم البيت الذي استحدثته ... وبدا في هدم بيتي الأوّل
ورماني قنله من كذبٍ ... رمية المصمى به المستأصل
يا نسائي دونكنّ اليوم قد ... خصّني الدهر برزءٍ معضل
خصّني قتل كليب بلظي ... من ورائي ولظيّ مستقبلي
ليس من يبكي ليومين كمن ... إنّما يبكي ليوم ينجلي
درك النَّائر شافيه وفي ... دركي تأري ثكل المشكل
ليتّه كان دمي فاحتلبوا ... دركاً منه دمًا من أكحلي
جلّ عندي فعل جسّاسٍ فيا ... حسرتا عمّا أنجلت أو تنجلي
إنّي قاتلةٌ مقتولةٌ ... ولعلّ الله أن يرتاح لي

قال أبو العباس: قرأت على أبي محمد النحوي المعروف بالتوزي عن أبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي مولى بني تميم بن مرة، من قريش عن مقاتل الأحول ابن سنان، من بني سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن

ثعلبة. وهو الذي يقول فيه طرفة: الطويل

رأيت سعوداً من شعوب كثيرة... فلم أر سعداً مثل سعد بن مالك

قال مقاتل: هذا عدي وأخوه كليب وسالم وفاطمة بنو ربيعة بن الحارث ابن جثم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب. وكان كليب ابن ربيعة ليس على الأرض بكري ولا تغلي أجار رجلاً ولا بعيراً إلا ياذن كليب، ولا كان يحمي حمي إلا لم يقرب. وكان لمرة بن ذهل بن شيبان عشرة بنين منهم جساس. وكان أصغرهم. وكانت أختهم عند كليب. قال مقاتل: وأم جساس بن مرة: هيلة بنت منقذ بن سليمان بن كعب بن عمرو بن سعد بن زيد مناة بن تميم. ثم خلف عليها بعد مرة بن ذهل سعد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة. قال فراس: وهي أمنا وخالة جساس يقال لها البسوس.

قال أبو برزة: البسوس أخت هيلة، فجاءت فنزلت على جساس، فكانت جارة لبني مرة ومعها ناقة اسمها السراب وكانت خواراً صفيماً من نعم بني سعد، ومعها فصيل لها.

قال أبو برزة: وقد كان كليب قال لصاحبه أخت جساس: هل تعلمين على الأرض عربياً يمنع مني ذمته؟ فسكتت، ثم أعاد ذلك عليها فسكتت، ثم أعاد ذلك عليها الثالثة فقالت: نعم، أخي جساس وندمانه ابن عمه عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل. وعمرو هو المزدلف.

وأما مقاتل فزعم أن امرأة كليب بيننا تغسل رأس كليب وتسرحه ذات يوم إذ قال لها: من أعز وائل؟ فضمرت فأعاد عليها فضمرت. فلما أكثر قالت: أخوأي جساس وهمام! فنزع رأسه من يدها وأخذ القوس فرمى فصيل ناقة البسوس، خالة جساس وجارة بني مرة، فأقصده، فأغمضوا على ما فيها وسكنوا. ثم لقي كليب ابن البسوس، فقال: ما فعل فصيل ناقتكم؟ قال: قتلته وأخليت لنا لبن أمه، فأغمضوا على هذه أيضاً. ثم إن كليياً أعاد بعد هذا على امرأته فقال: من أعز بني وائل؟ قالت: أخوأي، فأضمرها وأسرها كليب وأسكت حتى مرت إبل جساس فإذا الناقة، فاستكرها فقال: ما هذه الناقة؟ قالوا: لخالة جساس. قال: أو قد بلغ من أمر ابن السعدية أن يجير علي بغير إذني؟ أرم ضرعها يا غلام، فشقه. قال: فأخذ القوس فرمى ضرع الناقة، فاختلط لبنها ودمها. وراحت الرعاء على جسلس فأخبروه بالأمر فقال: احلبوا لها مكياً من لبنها ولا تذكروا لها من ذلك شيئاً، وأغمضوا عليها.

قال مقاتل: حتى أصابتهم سماء. فغدا في غبها عمرو بن ذهل بن شيبان فطعن عمرو كليياً فقصم صلبه. وأما أبو برزة فزعم أن جساساً أمسك حتى ظعن ابنا وائل، فمرت بكر على نهي يقال له سبيث، فأبعدهم عنه كليب وقال: لا تذوقوا منه قطرة ثم مروا على آخر يقال له الأحص فأبعدهم عنه. ثم مروا على بطن الجريب فمنعهم إياه فمضوا حتى نزلوا الذنائب، واتبعهم كليب وحيه حتى نزلوا عليهم، فمر عليه جساس وهو واقف على غدير الذنائب، فقال أبعدت أهلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم من العطش. فقال كليب: ما أبعدناهم إلا عن شيء نحن له شاغلون. فمضى جساس ومعه المزدلف عمرو بن أبي ربيعة. ثم ناداه جساس: هذا كفعلك بناقة خالتي. قال: أوقد ذكرتها! أما إني لو وجدتها في غير إبل بني مرة بن ذهل لاستحللت تلك الإبل بما! فعطف عليه جسلس الفرس فطعنه بالرمح، فأنفذ حصنيه. فلما تداومه الموت قال: يا جسلس، اسقني من الماء. قال: ما عقلت استسقاءك من الماء مذ ولدتك أمك قبل ساعتك هذه.

قال أبو برزة: فعطف عليه المزدلف عمرو بن أبي ربيعة فحز رأسه.
وأما مقاتل فزعم أن عمرو بن الحارث بن ذهل هو الذي طعنه فقصم صلبه، ففي ذلك يقول مهلهل: الوافر
قتيلٌ ما قتيل المرء عمرو ... وجسّاس بن مرّة ذو ضير
وقال نابغة بني جعدة لعقال بن خويلد العقيلي لما أجاز بني وائل بن معن، وقد قتلوا رجلاً من بني جعدة،
فحذره عدوان الظلم واقتص له أمر كليب وحديثه: الطويل
كليبٌ لعمرى كان أكثر ناصراً ... وأيسر ظلماً منك ضرج بالدم
رمى ضرع نابٍ فاستحرت بطعنة ... كحاشية البرد اليماني المسهم
وقال لجسّاس: أغني بشربة ... تفضّل بما طولاً عليّ وأنعم
فقال: تجاوزت الأحصّ وماءه ... وبطن شبيث وهو ذو مترسّم
وهي في كلمة.

وقال العباس بن مرداس لكليب بن عهمة الظفري أخي عباس ومالك بن عهمة، وكانوا شركاء في القرية
فجحدهم كليب حظهم منها فحذره غب الظلم وما لقي كليب منه: الكامل
أكليب مالك كل يوم ظالماً ... والظلم أنكد، وجهه ملعون
فافعل بقومك ما أرد بوائل ... يوم الغدير سميك المطعون
وأظنّ أنك سوف تلقى مثلها ... في صفحتك سناهما المسنون
إن القرية قد تبين شأهما ... لو كان ينفع عندك التبين
أجحدتني ثم انطلقت تحطها ... وأبو يزيد بجوها مدفون
وقال رجل من بكر بن وائل في الإسلام، وهو يحمل على الأعشى وزعموا أنه شليل بن عريرة: الطويل
ونحن قهرنا تغلب ابنة وائل ... بقتل كليب إذ طغى وتخيلا
أبأناه بالتآب التي شقّ ضرعها ... فأصبح موطوء الحمى متدلّلاً
وهي كلمة.

قال: ومقتل كليب بالذنائب عن يسار فلجة مصعداً إلى مكة، وذلك قول المهلهل: الوافر
ولو نبش المقابر عن كليب ... فيخبر بالذنائب أي زيرو
قال أبو برزة: فلما قتله جسّاس أمال بيده الفرس حتى انتهى إلى أهله خارجةً ركبته. قالت أخته: يا أمتاه،
إن جسّاساً قد جاء خارجةً ركبته. قالت: والله ما خرجت ركبته إلا لأمر عظيم. قالت: ما وراءك؟ قال:
ورائي، والله، أي قد طعنته طعنةً لتشتغلن منها شيوخ وائل رقصاً. قالت: أقنلت كليياً؟ قال: نعم. قالت:
والله لوددت أنك وإخوتك كتتم متم قبل هذا. ما بي إلا أن يتناكد بي أبناء وائل.
وزعم مقاتل أن جسّاساً قال لأخيه نضلة بن مرة ويقال لهما اليوم عضدا الحمار: الوافر
وإني قد جنيت عليك حرباً ... تغصّ الشيخ بالماء القراح
فأجابه أخوه نضلة بن مرة فقال:

فإن تك قد جنيت عليّ حرباً ... فلا وإنٍ ولا رثّ السّلاح
وإنما ذكرنا أول هذه الوقائع والسبب الذي هيجها تطرقاً إلى مرثي مهلهل أخاه وقومه ليقع ذلك على
معرفة عند من لم يكن عرفها.

قال المهلهل يرثي اخاه ويذكر أشراف من قتل به، وأن ذلك ليس بكفء: الوافر

أليلتنا بذي حسم أنيري ... إذا أنت انقضيت فلا تحوري

فإن يك بالذّنائب طال ليلى ... فقد يبكي من اللّيل القصير

فلو نيش المقابر عن كليب ... فيخبر بالذّنائب أيّ زير

معنى ذا أن كليياً كان يعبر مهلهلاً فيقول: أنت زير نساء. وإنما يقال ذلك لمؤثر اللهو بالنساء والحديث
إليهن على المساعي وطلب الذكر، وكان مهلهل أوقع بهم بالذّنائب وقعة منكرة فيقول: لو رأى كليب ما
صنعت لعلم أيّ غير زير.

بيوم الشّعثمين لقرّ عيناً ... وكيف لقاء من تحت القبور ؟

وأيّ قد تركت بوارداتٍ ... بجيراً في دمٍ مثل العبير

خبر بجير: وهو ابن الحارث بن عباد بن ضبيعة بن قيس بن ربيعة، وكان الحارث من فرسانهم، فاعتزل هذه
الحرب. وجاء بجير يقاتل مع قومه يوم واردات، وهو مشهور من أيامهم. فأخذ أسيراً فقتله مهلهل وقال:

بؤبشسع كليب، فقيل للحارث بن عباد إن ابنك بجيراً قتل. فقال الحارث: إنه لأعظم قتيل بركة إن أصلح

الله بين ابني وائل. فقيل له: إن مهلهلاً حين قتله قال: بؤبشسع كليب. فقال عند ذلك: المديد

قرّباً مر بطّ التّعامة منّي ... لفتح حرب وائل عن حيال

لم أكن من جناهما علم اللّ ... ه وإتي بحرّها اليوم صال

لا بجيرٌ أغنى فتياً ولا ره ... ط كليبٍ تراجروا عن ضلال

ثم دخل في الحرب.

رجع إلى شعر مهلهل:

هتكت به بيوت بني عبادٍ ... وبعض الغشم أشفى للصدور

على أن ليس يشفى من كليبٍ ... إذا برزت محبّاة الخدور

وهمام بن مرّة قد تركنا ... عليه القشعمين من التّسور

ينوء بصدرة والرّمح فيه ... ويخلجه خدبٌ كالبعير

فلولا الرّيح أسمع أهل حجرٍ ... صليل اليبض تقرع بالذّكور

فدىّ لبني الشقيقة يوم جاؤوا ... كأسد الغاب لجّت في الزّبير

كأنّ رماحهم أشطان برّ ... بعيدٍ بين جاليها جرور

كأنّا غدوةً وبني أبينا ... بجنب عنيزةٍ رحيا مدير

نكرّ عليهم عوداً وبدءاً ... كأنّ الخيل تنهض في غدوير

وقال أيضاً يرثيه: الخفيف

طفلةً ما ابنة الحلل بيضا ... ء لعوبٌ لذيذةٌ في العناق
ضربت نحرها إليّ وقالت ... يا عديّ لقد وقتك الأواقي
ما أرجي بالعيش بعد ندامي ... قد أراهم سقوا بكأس حلاق
بعد عمرو وعامرٍ وحبيّ ... وقتيلي صدوف وابني عناق
وامريء القيس ميّت يوم أودى ... ثمّ خلّى عليّ ذات العراقي
وكليبٍ عبر الفوارس إذ ح ... مّ رماه الكماة بالإيقاق
إن تحت الأحجار حزمًا وجوداً ... وخصيمًا ألدّ ذا معلاق
من قال معلاق أراد: إذا علق خصمه بلغ منه. ومن قال مغلاق أراد: يغلق الحجة على الخصم.

حيّة في الوجار أربد لا ين ... فع منه السليم نفت الرائي
وقد أطلنا القول في المراثي والتعازي وما بهما من المواعظ. وآخر بما أطيل أن يمل. وقد قال أحد المتقدمين:
من أطل الحديث فقد عرض نفسه للملل ولسوء الاستماع. وقد كنا ذكرنا أشعاراً من أشعار المتقدمين،
فقلنا نملّيها على وجهها. ثم رجعت إلى أنّها مجموعة في الكتاب الكامل على شرح جميع إعرابها ومعانيها، فإن
رجعت معادةً، وهو يؤخذ من ثم. وقد أتى للقاضي رحمه الله أكثر من الحول. وقد قال لبيد:

ومن ييك حولاً كاملاً فقد اعتنر

ولكننا نشيع ما قد مضى من الأخبار بأخبار طريفة من هذا الباب، وأشعار طريفة مختصرة، ينقطع الكلام
عليها إن شاء الله وبه القوة.

حدثت أن رجلاً عزى يحيى بن خالد عن حرمة له فقال: أيها الوزير، تقديم الحرم من النعم، وتمثل: الوافر

تعزّ إذا رزئت بخير درع ... تسربل للمصائب درع صبر

ولم أر نعمةً شملت كريماً ... كعورة مسلمٍ سترت بقبر

وسمع أسماء بن خارجة الفزاري نائحة بالكوفة تقول: المتقارب

فمن للمناير والخافقات ... وللجود بعد زمام العرب

ومن للعناة وحمل الدّيات ... ومن يفرج الكرب حين الكرب

ومن للطّعان غداة الهياج ... ومن يمنع البيض عند الهرب

فقال: مثل هذا فليبيك. ثم قال: الكامل

يأخذُ إنك إن تّوسد لّينا ... وسّدت بعد الموت صمّ الجنّدل

فاعمل لنفسك في حياتك صالحاً ... فلتندمن غداً إذا لم تفعل

وقال عبد الله بن العباس: ما اتعظت بشيء بعدما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما اتعظت

بكتاب كتبه علي عليه السلام إلي، وكان كتابه: أما بعد. فإن المرء يسره درك ما لم يكن ليفوته، ويسوؤه

فوت ما لم يكن ليبركه. فليكن سرورك بما نلت من أمر آخرتك. وليكن أسفك على ما فاتك من ذلك.

وما نلت من الدنيا فلا تنعم به فرحاً، وما فاتك منها فلا تكثر عليه جزعاً، وليكن همك لما بعد الموت.

وقال بعضهم: سمعت بكاء راهب فناديت: يا راهب، ما يبكيك؟ فقال: أبكاني أمر عرفته فجزت عن سبيله، وقصرت في طلبه، ويوم مضى أورثني عبرته وحسرتة، نقص له أجلي، ولم يقص له أملي. وروي أن بعض ملوك الفرس كان شديد الغضب، فكتب ثلاث رقاع، ثم وكل رجلاً حازماً من أصحابه فقال: إذا اشتد غضبي فادفعوا إلي الأولى، فإذا سكنت بعض السكون فادفعوا إلي الثانية، ثم ادفعوا إلي الثالثة، فكان في الأولى: إنك لست بالإله، إنما أنت بشر يوشك أن يموت، ويأكل بعضك بعضاً. وفي الثانية: ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء. وفي الثالثة: خذ الناس بأمر الله، فإنه لا يصلحهم إلا ذلك. وقال أبو عبد الرحمن بن عائشة: لما أتى بحجر بن عدي وأصحابه يقتل بعذراء قال: ما اسم هذه القرية؟ قالوا: عذراء. قال: والله إني لأول فارس وعر أهلها يوم افتتحناها. فلما قرب ليقول صلى ركعتين وأظهر جزعاً قيل له: أتجزع؟ فقال: ولم لا أفعل؟ كفن منشور، وسيف مشهور، وقبر محفور، ولست أدري أيؤدبني إلى الجنة أم إلى نار.

فلما قتل قال عبد الله بن خليفة الطائي يرثيه: الطويل
تذكرت ليلي والشبيبة أعصرا ... وذكر الهوى برح على من تذكر
أقول ولا والله أنسى مصابهم ... سجيس الليالي أو أموت فأقبرا
على أهل عذراء السلام مضاعفاً ... من الله وليسق السحاب الكنهورا
ولاقي بها حجر من الله رحمة ... فقد كان أرضى الله حجراً وأعدرا
فيا حجر من للخيل تطعن بالقتنا ... وللملك المغزي إذا ما تعشمرا
فقد عشت محمود الحياة وإني ... لأطمع أن تعطى الخلود وتحبرا
وقال حسان بن ثابت يرثي جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبد الله ابن رواحة وكان قد أمرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على جيش مؤتة: الطويل
تأويني ليل يبثرب أعسر ... وهم إذا ما نوم الناس مسهر
لذكرى حبيب هيجت لك عبرة ... سفوحاً وأسباب البكاء التذكر
بلي، إن فقدان الحبيب بليّة ... وكم من كريم يتلى ثم يصبر
رأيت خيار المؤمنين تواردوا ... شعوب وقد خلقت فيمن يؤخر
فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا ... بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر
وزيد وعبد الله حين تتابعوا ... جميعاً وأسباب المنية تخطر
غداة مضى بالمؤمنين يقودهم ... إلى الموت ميمون التقيية أزه
أعر كضوء البدر من آل هاشم ... أبي إذا سيم الظلّامة يجسر
فطاعن حتى مات غير موسد ... بمعترك فيه القنا تتكسر
فصار مع المستشهدين ثوابه ... جنان وملنق الحدائق أخضر
وكنا نرى في جعفر من محمد ... وقاراً وأمراً حازماً حين يأمر

وما زال في الإسلام من آل هاشمٍ ... دعائم عزٍّ لا ترام ومفخر
وهم جبل الإسلام والناس حولهم ... رضامٌ إلى طودٍ يروق ويقهر
بما ليل منهم جعفرٌ وابن أمّه ... عليٌّ ومنهم أحمد المتخير
وحمزة والعبّاس منهم ومنهم ... عقيلٌ، وماء العود من حيث يعصر
بهم تفرح اللاواء في كلِّ معركٍ ... عماسٍ إذا ما ضاق بالناس مصدر
هم أولياء الله أنزل حكمه ... عليهم وفيهم ذا الكتاب المطهر
ومما يستحسنه الناس من المراثي ويخف على ألسنتهم قصيدة محمد بن مناذر الصبيري، مولى بني صبير بن
يربوع في عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفي حتى قد خلطوا في الرواية، وزاد بعضهم على بعض. ونحن نختار
اختياراً منها تقع فيه الموعظة الحسنة من قول المخلوقين، والكلام المرضي من ذلك، وهي التي أولها: الخفيف
كلّ حيٍّ لا قي الحمام فمود ... ما لحيٍّ مؤمّلٍ من خلود
لا تهاب المنون حيّاً ولا تب ... قي علي والدٍ ولا مولود
يقدح الدهر في شماريخ رضوى ... ويحطّ الصّخور من هبّود
يزعمون أنه غلظ في هذا، وأن هبّود حفيرة، وليس كما قالوا، إنما الحفيرة هبّوب. والذي قال هو: هبّود.
وذكروا أنها أكمة.

ولقد تترك الحوادث والأبيّ ... ام وهياً في الصّخرة الصّيخود
ليس يبقى على الحوادث حيٌّ ... غير وجه المهيمن المعبود
ومما استحسننت منها ولم أرذل غيره، قوله:
أين ربّ الحصن الحصين بسورا ... ء وربّ القصر المنيف المشيد
شاد أركانه وبوبه با ... بي حديدٍ وحفّه بجبود
كان يجبي إليه ما بين صنعا ... ء فمصرٍ إلى قرى يبرود
وترى حوله زرافات خيلٍ ... جافلاتٍ تعدو بمثل الأسود
فرمى شخصه فأقصده الله ... ر بسهمٍ من المنايا سديد
ثمّ لم ينجّه من الموت حصنٌ ... دونه خندقٌ وبابا حديد
وملوكٌ من قبله عمروا الأُر ... ض أعينوا بالنصر والتأييد

فلو أنّ الأيام أخلدن حيّاً ... لعلاءٍ أخلدن عبد المجيد
ما درى نعشه ولا حاملوه ... ما على التّعش من عفافٍ وجود
ويح أيدٍ حثت عليه وأيدٍ ... دفتته، ما غيّت في الصّعيد
غيّت في الصّعيد حزماً وعزماً ... ولراز الخضم الألدّ العنود
إنّ عبد المجيد يوم تولّى ... هدّ ركناً ما كان بالمهدود
هدّ ركني عبد المجيد وقد كن ... ت بركنٍ منه أبوء شديد

حين تَمَّت آدابه وتردّى ... برداءٍ من الشبّابِ جديد
وسمت نحوه العيون وما كا ... ن عليه لزانِدٍ من مزيد
وكأني أدعوه وهو قريبٌ ... حين أدعوه من مكانٍ بعيد
ولئن كنت لم أمت من جوى الحز ... ن عليه، لأبلغن مجهودي
لأقيمنّ مآتماً كنجوم ... اللّيل زهراً يلطنن حرّ الحدود
موجعاتٍ يبكين للكبد الحرّ ... ي عليه وللفرّاد العميد
ولعينٍ مطروفةٍ أبداً قا ... ل لها الدّهر: لا تنامي وجودي
كلّما عزّك البكاء فأنفد ... ت لعبد الخجيد سجلاً فعودي
لفتىً يحسن البكاء عليه ... وفتىً كان لامتداح القصيد
فكل هذه الأبيات غرة، ولقد بلغني بلاغاً إخاله صحيحاً أن عبد الخجيد كان للمدح حياته موضعاً، وللمراثي
بعد موته مستوجباً، عفاً وجمالاً وأدباً وشباباً.

وقال القائل: البسيط

وإنّ أحسن بيتٍ أنت قائله ... بيتٌ يقال إذا أنشدته صدقا
وأحسن من ذلك وإن جل قدر المؤمن بكاء الرجل على نفسه وإن كان حياً، لما يتوقعه. كما قال إسماعيل
بن القاسم: السريع

كم سترى في التّاس من هالكٍ ... وهالكٍ حتّى ترى هالكا
فهذا مأخوذ مما يروى أن الصديق رحمه الله كان يكثر إنشاده وهو: مجزوء الكامل
تنفك تسمع ما حيي ... ت بهالكٍ حتّى تكونه
والمرء قد يرجو الرّجا ... ء مغيباً والموت دونه
ومع قوله هذا: السريع
أصبحت الدّنيا لنا عبرةً ... والحمد لله على ذلكا
اجتمع التّاس على ذمّها ... وما ترى منهم لها تاركا
ومثله قوله: الطويل

ننفس في الدّنيا ونحن نعيبها ... وقد حدّرتناها لعمرى خطوبها
وما نحسب السّاعات تقطع مدّةً ... على أنّها فينا سريعٌ دبيبها
كأني برهطي يحملون جنازتي ... إلى حفرةٍ يحشى عليّ كنيبها
وباكيةٍ حرّى تنوح وإنّي ... لفي غفلةٍ عن صوتها لا أجيّبها
وإني لمن يكره الموت والبلى ... ويعجبني روح الحياة وطيبها
فحتّى متى حتّى متى وإلى متى ... يدوم طلوع الشّمس لي وغروبها
أيا هادم اللذات ما منك مهربٌ ... تحاذر نفسي منك ما سيصيبها
رأيت المنايا قسّمت بين أنفسٍ ... ونفسي سيأتي بعدها نصيبها

وقال منصور النمري يرثي يزيد بن يزيد:

متى يبرد الحزن الذي في فؤاديا ... أبا خالدٍ من بعد ألا تلاقيا؟!
أبا خالدٍ ما كان أدهى مصيبةً ... أصابت معداً يوم أصبحت ثاويا
أبا خالدٍ لا بل عممت بنكبةٍ ... فتبكي معدُّ والقبيل اليمانيا
وناعٍ غدا يعني يزيد بن يزيدٍ ... فقلت له: أصبحت للوجود ناعيا
أعيني جودا بالدموع وأسعدا ... بعبرة محزونٍ بكى لبكائيا
سمعت بكاء النائحات بسحرةٍ ... فهيجن أحزانا غلبن عزانيا
ألا عذر الله العيون البواكيا ... وقد عاينت يوماً من الدهر شاجيا؟
لعمرى لمن سرّ الأعادي وأظهروا ... شمتاً، لقد مرّوا بربعك خاليا
وخلقت ليثي غابطين كلاهما ... سيلقى الأعادي من يديه الدواهيا
فشبهك أخلاقاً وعزّة أنفـسٍ ... إذا النفس جاشت لو بلغن التراقيا

قال النفس في موضع النفوس.

سقيت السّواري والغوادي وقد أرى ... خيالك يسري ثمّ يصبح غاديا
نعزّي بك الإسلام إنك دونه ... إذا نكل الحامون كنت محاميا
مشمّر أذيال تحوط حريمه ... وتحمي له أطرافه والقواصيا
وكت شهاباً للخليفة ثاقباً ... وكوكبة ترمي العدا والمناويا
وكت سناناً نافذاً في يمينه ... وسيفاً له عضباً يقده الهواديا
وكت إذا نادى لأمر عظيمةٍ ... ولم يك من يكفي أصابك كافيا
.... دويماً جانباً والسواسا ... وشمّرت أذيالاً وليبت داعيا؟
وقمت بأمر النّغر بعد فساده ... وأوشكت منه رقع ما كان واهيا
فقد مات معروفٌ وماتت تجارةٌ ... ومات غناءً يوم ودّعت ماضيا
نعزّي أمير المؤمنين ورهطه ... بسيفٍ له ما كان في الحرب ناييا
لقد كان في أعدائهم ذا شكيمةٍ ... لهم ناهكاً عدا وقد كان ناكيا؟
وملآن من ودّ الخليفة صدره ... يؤدّي إليه التصح مذ كان ناشيا
مضى ماجد الأيام رافع همّةٍ ... إلى الخلق الأعلى، من الدّم ناجيا
فإن عدّ في دنيا فذكر مكارمٍ ... وإن عدّ في دينٍ فلم يك تاليا
على مثل ما لاقى يزيد بن يزيدٍ ... عليه المنايا فالتق إن كنت لاقيا
فتى كانت الأبطال تعرف أنّه ... إذا قارعته ليس بالضّيم راضيا
فإن تك أفنته الليالي فأوشكت ... فإن له ذكراً سيفني اللياليا
حلقت لقد أبقي يزيد لرهطه ... معالي لا تنفك تبني معاليا

كنا أردنا أن نغلي أشعاراً من أشعار المحدثين في ضروب من المراثي فأشفقنا من أن يستخف بهذا الكتاب،
والمراثي لا تنقضي ما كان الناس؛ فأحببنا أن نختمه ونأخذ في غيره، وأن يكون ما نختمه به شريفاً بهياً،
فأخترنا له قصيدة أنشدناها الرياشي لرجل من غطفان من بني عبد الله، كانت له صحبة، قتل يوم جلولاء
يقال له سالم، يرثي رسول صلى الله عليه وسلم: المتقارب
أفاطم بكّي ولا تسأمي ... لصبحك ما طلع الكوكب
فقد هدّت الأرض لما ثوى ... وأي البرية لا ينكب
فمالي بعدك حتّى المما ... ت إلا جوىّ داخل مناصب
جوىّ حلّ بين الحشا والشّغاف ... فخيم فيه فما يذهب
فيا عين ويحك لا تسأمي ... وما بال دمّعك لا يسكب !
وقد بان منك الذي تعلمين ... وضاق بك الأرض والمذهب
ومن ذا لك الويل بعد الرسول ... بيكّي من الناس أو يندب
فإن تبكه تبك خير الأنام ... كثير الفواضل لا يجذب
وإن تبكه تبك سهل الجنا ... ب محض الضرائب لا يؤشب
وإن تبكه تبك نور البلاء ... د ضخم الدّسيعة لا يحسب
وإن تبكه تبك خير الأنام ... سريعاً سوابله مخصب
وإن تبكه تبك واري الرّناد ... صدوق المقالة لا يكذب
وتبكي الرسول وحقّت له ... شهود المدينة والغيب
وتبكي له الصّم، صمّ الجبال ... وشرق المدينة والمغرب
وتبكيه شعناء مضرورة ... إذا حجب الناس لا تحجب
ويكيه شيخ أبو ولده ... تطيف بعقوته أشيب
ويكيه أهل التّهي والحجى ... من الناس والطّارق الأخب
ويكيه ضيف جفاه الصّديق ... وذو التّسب الدّاخل الأقرب
ويكيه شعثُ حمّاص البطون ... أضرب بهم زمن أنكب
وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً.

هذا آخر الكتاب. وقيل: ما قيل فيه صلى الله عليه قليل وإن كان كثيراً في اللفظ، ويسير وإن كان جليلاً
في النفس، وعليه رحمة الله وبركاته.

وهذا حديث نذكره لاتباعه ذكره عليه السلام، ويعود به عائذ، ويأتى به مؤتم: حدثني الرياشي العباس بن
الفرج قال: أخبرنا أحمد بن شبيب قال: أخبرنا أبي عن روح بن القاسم عن أبي جعفر الخطي المدني عن أبي
أمامة بن سهل ابن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان رحمة الله عليه
في حاجة له، وكان عثمان لا ينظر إليه ولا يلتفت إلى حاجته. فلقي عثمان بن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال

له عثمان بن حنيف: إيت الميضأة فتوضأ، ثم ات المسجد فصل ركعتين ثم قل: اللهم إني أسألك بنبيي محمد،
نبي الرحمة، يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربي فيقضي لي حاجتي وتذكر حاجتك، ثم رح حيث تروح.
فانطلق الرجل فصنع ذلك. ثم أتى باب عثمان بن عفان، رحمة الله عليه فأخذ البواب بيده، فأدخله على
عثمان بن عفان رضي الله عنه فأجلسه معه على الطنفسة، فقال له: حاجتك؟ فذكر له حاجته فقضاها، ثم
قال: ما فهمت حاجتك حتى كانت الساعة. وقال: انظر ما كانت لك من حاجة.
ثم إن الرجل خرج فلقي عثمان بن حنيف، فقال له: جزاك الله خيراً. ما كان ينظر في حاجتي ولا يلفت إلي
حتى كلمته، فقال عثمان بن حنيف: ما كلمته، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء ضير
فشكا إليه ذهاب البصر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو تصبر؟ فقال: يا رسول الله، إنه ليس لي
قائد، وقد شق علي. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إيت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين، ثم قل: اللهم، إني
أسألك وأتوجه إليك بنبي محمد نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم. يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربي ليرد لي
بصري. اللهم شفعه في، وشفعني في نفسي. قال عثمان بن حنيف: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى
دخل الرجل كأنه لم يكن به ضرر.
تم كتاب النعازي والمراثي بأسره، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم وكان
الفراغ منه في العشر الأوسط من جمادى الآخرة من سنة ثلاث وستين وخمس مائة.